السعيد عبد الغني

قرية الجدة عشتار

رواية

السعيد عبدالغنى

قرية الجدة عشتار

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الثانى شقة 3
71 ب حدائق الأهرام البوابة الأولى -
ميدان الرماية - الجيزة

البريد الالكترونى:
baitelyasmin@gmail.com
ziad.meguid@gmail.com

تليفون:-
01016685583 (+202)
01110094625 (+202)

قرية الجدة عشتار (رواية)
المؤلف: السعيد عبد الغني
الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
2021/؟؟؟؟؟
الترقيم الدولى:
؟؟؟؟؟؟؟؟؟
تصحيح لغوي: محمد حلمي
حقوق الطبع محفوظة.
الطبعة الأولى 2022

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو اي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطى مسبق.

إلى ريم غنايم

*

في البدء كان الحد
وفي النهاية كان الشعر.
في البدء كانت المخيلة حرة من اللغة
لذلك كان كل شيء حرا.
شيء أكبر من القصيدة يجب أن أفعله
أكبر من الانتحار
أكبر من المتخيل..

أنا الراوي العليم، كل شيء أعرفه وكل شيء أدرك احتمالاته، وهذا مضن، أحتاج أن يرويني أحد أو يستخدمني شخصيا في سرده.
كتبت كثيرا عن أشخاص لا أعرفهم ولا أجدهم أبدا في أحد.

(1)

جدتي عشتار شخصية أسطورية وحزينة دوما.

أسألها على ذلك بلا أمل في الإجابة، فابتعدت عن السؤال لعدم مضايقتها ولكن أبي يحترمها أكثر من أي أحد آخر.

أسماؤنا غريبة والسبب جدتي عشتار التي يقال عنها إنها ليست من مصر، ولا حتى من بلد معين لكنها من الشرق، بعضهم يقول عراقية، البعض الآخر شامية، البعض الآخر يقول إنها إيرانية..

هي التي سمتنا وهي التي ربتنا.

أبي دوما بعيد، يحافظ على هيبته التي هي أهم من حضن واحد لأحد أبنائه طوال حياته.

لكنه له صديق واحد مقرب وهو الشيخ الأكبر ينظر لي باستغراب وأبي ينظر له وهو راحل باختلاس كما يفعل من ما وراء كل شيء، الباب، المرايا، عندما نلعب أو نتشاجر على حِجر جدتي.

لم أره يبتسم إلا مرتين في حياتي، المرة الأولى في حضرة هو الذي ينظمها، أو يدفع المال لها ومرة في رؤيته للقمر بدرا، عندما اختبأت واختلست النظر له، لأعرِف ملامحه فقط بعد خلعه للشال.

غرفته محجوبة عنا جميعا، لا يدخلها أحد. وبيتنا كان مليئا بالغوامض والأسرار.

جاء ميعاد الاحتفالات الصوفية في القرية، جدتي عشتار تنظم الأمر

وتشتري القماش وتصنع الأعلام.

أتى هذا الرجل القمّاش الذي لم أعرف اسمه كون الجميع ينادونه يا "قمّاش" وبدأ ينظر لي نظرات غريبة، هي ليست مقززة، أو مُحبِة ولكنها خائفة جدا.

لاحظت جدتي فحاولت إلهائي وتجاوبت معها لحُزنها رغم ملاحظتي.

وذهبت بعد ذلك معها أمام مدفن زوجها تردد " الناس ستعود بعد دفني ولا أعرف الروح ستُزهزِه بالوحدة أم ستشقى؟

لن يبقى غير الصبار الحزين الذي غرسه بزوغ هنا.

عالمي بَيَّضه الموت الآن والسكة انتهت.

اغفر لي يا رب إن فعلت شيئا ضد قلبي ومشيئته وصبرني يا مولى الكل واحمني وافدني من حر القبر ووحشته".

لم أكن أفهم أو أعي ماذا تقول؟ وبدأت في الحديث إليّ.

الجدة عشتار: هل تعرف لم أخذك أنت؟ ولا أخذ أخويك؟

بزوغ: لم يا جدتي؟

عشتار: لأنك صاف وعيونك نقية مثل عيون الخيل ولديك قبول كبير لما لا يمكن أن تفهمه.

بزوغ: أنا لا أفهم كل كلامكم يا جدتي وخصوصا أنتِ، لكن أحسه، كلامكم حلو وأفكر فيه كثيرا.

عشتار: من يُحس سيفهم بعد ذلك، الروح تصل حتى لو سكتت، يوصل كلامها ومعانيها.

أهم شيء تكون مفتوحة وغير منتظرة أي شيء.

بزوغ: تعرفي يا جدتي، نفسي أقضي عمري كله أطوف، حلمت البارحة

أني أطوف وحولي كل الدنيا تطوف، أنتظر الحضرة من السنة للسنة.

وقفت عشتار ونظرت لي بحنان وحضنتني ومشينا.

وبدأت توازيني في المشي، وصلنا بعد دقائق بسيطة للحضرة.

قابلنا شيخا منهم لكنه ليس الأكبر يلبس الجلباب الأبيض والشال الأخضر ووقف لما رآنا.

سبقت جدتي فناديت عليها: هيا يا جدتي، أول مرة تتأخرين عني، أنتِ دائما تسبقينني.

الحضرة الصوفية تقام كل فترة في القرية وفي القرى المجاورة، يخرج الناس جميعهم رغم فقرهم على العربات الكارو، ماسكين الأعلام الخضراء التي خاطتها جدتي عشتار.

كل سنة يموت من الجذب أحدهم بعد نشوته المطلقة يرمي نفسه في النيل.

الجو غائم في الشتاء وندي، ممكن أن يستدل منه على قدوم المطر، جاء الشيوخ بالدفوف وكعادتي حشرت نفسي وسطهم.

وظللت أسمع كلامهم الجميل حتى في التعليقات الصغيرة.

قال الشيخ الأكبر: أشعر منذ أول مرة قدمت إلى هذه القرية بشيء مختلف فيها، لم أتبينه أبدا، شعور موح بوحشة أو ذنب كبير.

ترك الذي يثبت الأعلام على البوص الطويل عمله واقترب من الشيخ وقال باستعجاب: كيف يا مولانا؟

فأردف الشيخ الأكبر: ربما كالشيء الذي تعبر عنه باللغة، وأنت متقين أنه لا يستطيع التعبير عنه، حتى في أفعال الناس هنا، دقق جيدا.

فقال الرجل: لم أفهم؟ تقصد أن مبروكة أو أهلها متطرفين؟

الشيخ الأكبر في شرود: لا أعلم كيف أسميه لكنه شيء مختلف عن التطرف، لا، ليس تطرفا.

رأيت كيف يطوفون، لا أنسى هذا الرجل المجنون الذي دخل الحضرة أول مرة ورمى نفسه، رأيت في عينيه قدرة على الفناء لم أرها حتى شهق شهقة عظيمة ومات.

رآني الشيخ وقال لي: اقترب.

فاقتربت على استحياء وتردد .

فاردف باستبشار: من أنت؟

فقلت بعنفوان: جدتي عشتار من خاطت كل هذه الأعلام.

قال الشيخ الكبير: أنت ابن صاحب الهيبة؟

(لم يكن يقال اسمه)

بزوغ: نعم

الشيخ الأكبر: ما اسمك؟

بزوغ: اسمي بزوغ.

الشيخ الأصغر: اسم جميل وغريب.

الشيخ الأكبر: عائلته جميعها أسماؤهم غريبة، وهذا من لغة عشتار، أنت لا تعرفها.

دخلت جدتي مستبشرة بالشيخ فقال: أهلا بالطوافين الكبار والصغار (ونظر لي)، أهلا بالمريدين.

عشتار: أهلا يا مولانا، بدأتم مبكرا اليوم؟

الشيخ: أخاف موتي بعيدا عنها.

لو انقطعت الحضرة، فالملكوت موجود من الأزل للأبد، دائم بدوامه

سبحانه وتعالى.

وجه وجهه إليّ: بسم الله ما شاء الله، كان يأتي يا عشتار وهو صغير، كبر وكبر النور فيه.

عشتار: النور يُغذي المريد، فقط يمشي له.

الشيخ: أتذكر مجيئك منذ كنت طفلا، طوال عمرك بنت النور وإن شاء الله يكون بزوغ أيضا.

توجه لعشتار(بشرود) : جدتك كانت تأتي تطوف في صباها حتى في القرى المجاورة، وكلامها كان عسلا على الآذان.

كثيرا هَنّت الطوافين بوجودها وخِدمتهم، لذلك الجميع يحبها.

الشيخ بصوت جميل يتلو ويغني، وهناك رجل مقطوعة قدمه على الأرض يلبس جلابية بيضاء يطوف معهم بأعلاه ويقول بصوت عال مستمر "جذبني، جذبني، انجذبت بالنور ومَفلِش من روحي".

بدأوا جميعا بالطواف، عشرة أشخاص وعشتار وبزوغ يمينا ويسارا مُكونين دائرة.

أغمضت عشتارعيونها، ودمعت ووقعت على الأرض لأول مرة بعد عشر دقائق، فوقفت الحضرة وهرع الناس لها وحملوها بعيدا عن الحضرة.

عشتار(بشرود):النور يريدني والتوق كبير، الروح امتلأت به والرواح قريب.

بزوغ (بدمع في العيون): هيا يا جدتي نعود للبيت.

الشيخ: سلامتك يا عشتار، معروف أنك من أكثر الناس التي تبقى في الطواف، رَوَحي ارتاحي.

***

(2)

النعش الخشبي على الأكتاف من أربعة جوانب يحمله بالتناوب ثمانية أشخاص، أناس كثيرة تسير وراءه ويوجد أمامه القليل منهم، هناك أناس تضحك وتتكلم مع بعضها وهناك أناس تسير حزينة مطأطأة الرأس.

نساء مختلفة الأعمار تسير لابسة الأسود، بعض الغبار المتطاير من كثرة الأقدام والطريق مدبش مكسّر على جانبيه البوص والقمامة.

عشتار ستدخل قبرها الآن الذي يمكن أن يسعها أكثر من الدنيا مع أنه أصغر منها بكثير.

ستبات بجوار زوجها بعد سنين طويلة من الغربة عن دفئه وحضنه وروحه التي في الملكوت.

مستغرب من كم الناس الموجودة ومستغرب من الكلمات والاستعارات التي تأتي في رأسي.

لا أكتب مطلقا وضد التفكير المجازي والشعري، ليس لدي اهتمام بالشعر حتى أنني أكرهه في المدرسة، وأتقزز من هذه اللامنطقيات.

صقلت كتب ابن تيمية لغتي دون أن أعرف، وكذلك بحثي في القرآن.

وفي المرات التي اقتربت فيها من أبي كانت لشرح هذه الجمل الكبيرة في المجلدات الملونة بالبني والأسود.

بدأت بعدها التساؤلات تتعمق، وعائلتي لا تعتقد بحقي في السؤال، لأنه يدمر الجلال أو الهيبة للأشياء، ويدمر قيمتي وقيمة الشخص في المجتمع.

التيه يعلم قيمة الحرية، حيث الأطوار أدخلها وأخرجها بسرعة وكلها خارج حدود المجتمع. بينما الأعراف تعلم قيمة السلطة حيث الدور واحد للجميع.

وجدتي التي تشك في جلوسي في غرفة الدجاج وسط البراغيث والحر الشديد لأنني أستمني بدأت بمراقبتي حتى توفت وموتها أصبح مصدر أسئلة أعمق عن كل شيء.

فلم تعد تغنيني هذه الأجوبة السهلة في الكتب، بل صرت أدحضها بسهولة.

وكلما سألت جدتي: لم نحن هنا؟

جاوبت بسرعة: هناك أسئلة إجاباتها جمالية، لو بك جمال ما سألتها!

أستغرب ممن حولي وخصوصا الكبار سنا كيف يستريحون لإيمانهم بهذا الشكل، ولا يسألون أو يبشكو، وكثرة ما رأيت جعلني أظن مرضي أو اختلالي.

حتى أنني للقليل مِن الزمن شعرت بأنني بي عطب أو ملعون.

لا أستريح لشيء ولا أستطيع كبت الأسئلة، حتى لو تمت إجابتها واقتنعت، أعود للسؤال ثانية وليس عندي أي ملل من ذلك.

لم أخف من العقاب الذي يصوره الشيوخ في صلاة الجمعة، التي أسمعها من ميكروفون المسجد.

فلم أذهب للصلاة إلا نادرا في الجنازات فقط، وكانت العلة صِغر سني أو عدم وضوئي أو أي شيء يُبعدني.

لم ينتبه أحد أنها ليست لصغر سني، هذه الرأس قنبلة أسئلة متشاحِنة بفوضى وأحيانا عنف.

ألهتني هذه البحوث عن دراستي، وساعدت على شرودي وهربي من حصة الدين التي كانت ستكشف الأسئلة في رأسي كوني لا أستطيع الصمت حتى لو قاومت.

وكَبُر عمرِي الحقيقي كثيرا مخالفا لعمري الواقعي في شهادة الميلاد، كنت أجلس مع الكبار دوما، أحشر ذاتي بينهم، والكتب، الكتب لها أزمنة أخرى، وعجلة سريعة للوعي.

لم ألحظ ولا زميل لي في المدرسة ولا أحد الأقارب من أبناء عمومتي يطرح أي سؤال له علاقة بهذا الأمر.

حتى أنني حاولت مرارا بخبِث استدراجهم لهذه المناطق ولكن عبثا أحاول.

أشك أنهم يخفون كما أخفي هذه الأسئلة، البحث عن شبيه لعدم الشعور بالغربة ولدفع شذوذي.

لذلك لم أتخلص أبدا من تلك الوحدة، أن أفكر بما لا يُفكِر فيه من حولي وأتذوق كذلك جماليات أخرى.

بعض الناس تقول إنها وحيدة لأنه لا أحد بجوارهم، وبعضهم يقول لأنه لا أحد يفهمهم وبعضهم يقول لأنه خُلق هكذا كما كنت أقول من زمن طويل وكلها مفاهيم للوحدة على حسب وعي صاحبها.

لكنني أعتقد أن الناس مهما اجتمعوا، لهم قدر من الوحدة قبل أن يناموا، في أوقات الانتظار، في المآسي، كلنا وحيدون بدرجات متفاوتة.

بعد وفاة جدتي كانت امرأة أخرى تخبز، لم تجد أي أوراق لتوقد الفرن فظلت تبحث حتى وجدت كتاب ابن تيمية.

استغربت في البداية ونادت علي بصوت عال وقالت لي: ما الذي أتى بهذا الكتاب هنا؟

فقلت لها محاولا المداراة: أفلا يوجد غيري ليتم سؤاله؟ هناك الكثير في البيت.

فقالت: لا يوجد غيرك، أنا متأكدة، أنت صاحب الغرائبيات منذ كنت، سأوقد به الفرن، لا أجد أوراقا.

وقطعت بعض الورق وأنا رحلت، ووضعته بجوار الفن لتوقِد به كل مرة الفرن.

بدأ الأمر منذ نعومة أظافري، عندما كنت أسأل كثيرا الأسئلة الدينية المعهودة لأي شخص يفكر، والتي لا أعرف نسبها في ألمي ووحدتي أم أن هذا شكل طبيعي.

ووجدت كتب ابن تيمية لدينا في البيت لا يقترب منها أحد إلا أبي عندما يأتي من السفر والذي توقف عنه بعد كبرنا، يقلِب فيها قليلا ويدعها.

لم أعرف ابن تيمية وظللت لمدة طويلة أنطِق اسمه بالخطأ.

فلم يذكره الشيوخ من قبل أمامي أو في المدرسة.

كانت هناك أسماء أخرى شهيرة منها الغزالي والبخاري..

اشتراها من سفره، اشترى مكتبات كاملة، على الرغم من فقر الكتب حينها فإنني بالصدفة فتحت كتابا يتحدث عن العقيدة وهو أول كتاب فتحته، قرأته كله وتعرقت، كوني لا أعرف معاني الكثير من الحديث والجمل والمصطلحات.

أقوى من خبطات أخي على رأسي ونحن نلعب ونتصارع، كانت الأفكار.

أخي الأكبر والأعنف فيمن رأيتهم في حياتي، ثور.

أخذت الكتاب وجلست بين دجاج جدتي.

جلست هناك لكي لا يراني أحد وبعدها بدأت التساؤلات تكثر مع المعرفة، أو تكون أكثر دقة في رأسي الأبيض، أكثر امتدادا في تأويل ما حولي، أكثر عمقا في جوانيتي المليئة بالأسئلة.

غرفة الدجاج مليئة بالقش والدجاج الصغير في زاوية، وبعض الدجاج الكبير الذي أحيانا يُزعج عندما يبيض.

بجوارها غرفة الفرن لكنها مفتوحة وستتم رؤيتي منها، لذلك كنت أجلس في غرفة الدجاج وأغلق الباب وأجلس على القش المكوم.

هذه أول مرة يستدعيني نص يُثيرني، أو أنا مهتم به بدون بحث.

جدتي أتت لتُطعم دجاجها وأنا أغلق الغرفة من الداخل حتى خبَّأت الكتاب.

ثارت عليَّ قائلة: ماذا تفعل هنا والغرفة حارة جدا؟

قلت لها: لا شيء.

فقالت: املأ هذا الصحن بالماء، وتعال.

ملأته سريعا، ويدي كانت ترتعش على الصحن وأنا أجلبه لها، ابتسمت ولم تُعلِّق رغم أنها تعلم إخفائي شيئا، فهي لم تبحث حتى عن شيء في الغرفة ووضعت الماء ومسكت يدي وخرجنا.

هي تشك في ما أفعل، تظن أنني أستمني، لكن ظنها كان يقاومه أنني ما زلت صغيرا لم أبلغ بعد. هي شخصية حكيمة"عشتار"، لا تحكم إلا بعد التأكد والمعرفة حتى على طفل صغير.

***

(3)

جدتي التي أحيا معها منذ سنوات توفت من ساعة، وعندما اكتشفت الحداد في المنزل لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل سوى أن أهرب.

لقد رحلت جدتي، وما بقى منها ليس هو هي، إنما شيء غريب ساكن لا يتحرك، لا يدلق حنانا.. جدة غير عادية، وأنا ليس من عادتي المبالغة في تقدير الأشخاص فحسية النقد لدي موجودة بشكل دائم.

ولا أعرف هل الكتابة في الرأس أو على الورقة نوع من المفر من كثافة حضور الموت حولي، في أعز من أحبه في عائلتي؟!

أتذكر وجودها، أتذكر كالآن، الحوارات ومركزها، نبرة الأصوات، بنية العيون وما فيها من حب صاف.

لا تأخذ وقتا لكي تحبها ولكي تشاغلك وتصدر من قلبها ذبذبات هذا الدفق الوجداني الهائل.

أجلس بجوارها لنبني شجرة العائلة وتحكي لي، هذا جد فلان وأتى من فلان.. أو لتحكي لي قصة أسطورية.

وقد كنت أحب هذه الحكايات منها جدا، حكايات لا تُنسَى وتحدث فيّ دوما بوجودها كله وانتقل الجدال بيني وبينها لما كبرت.

كانت تفعل كل شيء بشكل حقيقي عميق، وسط الناس الجامحة للتمثيل، دمعتها حاضرة دوما توازي ما تنفعِل به.

الفقد أنشأ في الذات حدادا، توقا للطيوف، توقا لأماكن الرفات،

حضورا شبحيا للإنسان وسِجلا من الوجوه الخيالية قبل النوم التي بها أحيانا ملامح فارغة من الحياة، هي وجوه من فقدتهم.

رحمكِ الله يا جدتي وضمت روحي الحزينة كل الجمال الذي أنتجتيه فيّ.

***

(4)

يظهر ناس كثيرة بملابس مختلفة لكن هناك لبس الصوفية من الجلابيب البيضاء والشال الأخضر.

حلقات من الطوافين على نغم الشيخ الذي يغني والصوت يصل متناثرا حلوا، كل من في المكان يبتسم له، والطوافون مندمجون جدا في الطواف والاهتزاز وقول "هيه".

جاء الشيخ الأكبر ومال بذراعه على كتفي وقال بصوت خفيض: حضرة السماء الفناء فيها أقرب.

لا تفكِر في علة كل شيء، العالم مليء بالمجاهيل.

أعرف أن الحزن قاس وأن الوحدة حاوية ولكن هناك من حولك سيضمك.

بزوغ: أشك لو فتحت حضني للغرباء أنني سأجد أحدا يفهمني مثل جدتي.

الشيخ: الغربة حق على العارف ولكن داخلها معاني وأكوان تأويك.

لديك الذكرى، ظهر ومكحلة جدتك ظهر والمدى الأزرق الذي لا ينتهي.

***

(5)

في الرابع عشر من شهر أيلول (سبتمبر) هو عيد ارتفاع الصليب، لهذا من طيبته حاول رغم عيدية الأمر عنده وعند أقاربه، تركهم وأتى لقرية عشتار.

لم يكن مسيحيا عاديا، بل كانت له رؤى مع عمله كخياط و قمّاش ينتقل بين البلاد، يحمل جبة وينادي بلحن معين مميز.. القمّاش صديق النساء جميعهن وبالأحرى أكثر لجدتي عشتار وجدتي بديعة، يأتي من (دميانة)، هو وحده من يجلس مع جدتي عشتار بقرب بخلاف جدتي بديعة.. جاءت له رؤيا أنه يمشي يحمل صليبا خشبيا مزيّنا بقماش قديم كان ورثا من أبيه حريري وعليه امرأة.

بعد تغليف الصليب به ودهنه بكل ما يطيب من ماء ورد.

مشي في قريته المفضلة التي كان يجني منها الكثير من المال على عكس القرى الأخرى، والتي كان أهلها أكثر قربا له، وأكثر عشرة.

وهذه القرية يعلم أن بها الكثير من الشباب يموت، إما غرقا أو بأي طريقة كانت. وهذه ليست علامة جيدة، بل ومقلقة عن طاقة المكان نفسه.

ولكن القديسة دميانة وديرها قريب من هنا، ليسا لهما علاقة بالأمر، فلم تهرب من هنا ولم يُعذبها أهل تلك الأرض ولم يضطهدوها.

الأمر غريب ومُثير كون هذا الأمر يفتح أسئلة إيمانية كثيرة، وعللا وجبرا وحرية إرادة وخيرية والخ.

تصور وجود طاقة شريرة فيها، فحمل صليبه إلى القرية بدلا عن

قفة القماش، ومشى به.

لا يوجد في القرية أي مسيحيين لكنهم جميعا يحبونه لتعاملاته ومعرفته بهم جميعا ولدين الكثير له عند خطوبة بناتهن.

لكن تندّر الكثير عليه ولم يتركه الأطفال الصغار، حتى حمل الصليب لبرهة وجلس ووضعه بجواره فطلع عليه الأطفال قليلا قليلا وناموا عليه مصلوبين.

ولم يزعجهم أو يضايقهم بل تركهم.

بشوش لكنه هذه المرة كان يحمل ذنبا كبيرا في عينيه، كونه مؤمن بوجود إله وبوجود الكثير من الشر ولأنه يكتم الكثير من الأسرار أو يشارك بها.

حمل الصليب ومشى، ويقول في نفسه: هات كل غضبك عليهم علي، هات ألمهم وشرهم وتفاهتهم، أنا أقبل كل الألم.

هو يعلم أن الأمور لا تجري بهذه الطريقة وأن الواقعية تحكم الآلهة، وربما أيضا العدمية التي تلي نشوة الخلق.

حمل صليبه الذي عليه امرأة مرسومة وظل يمشي ويمشي حتى جلس على مصطبة المسجد ووضع الصليب بدون أن يدري أو يستشعر أين هو.

غرق في الأحلام ولم يفده شيئا عن الغياب، حتى حلم بصلب المسيح وصراخ شديد منه، وخوفه وعجزه ليس عن الفرار من الخشب بل عن زحزحة شر الحواريين.. وسأل نفسه «هل يستحق العالم صلبي؟ وهل سينتج صلبي خيرا؟» .. كانت هذه الأحداث الغريبة والمعقدة تعنون ميثولوجيتي وتملؤني بالشِعر الكامن.

***

(6)

أنا من ريف يشبه العالم، مليء بالكثير من السمات البشرية والمذاهب الفكرية والجندرية، والأديان المختلفة والتصورات والشخصيات التي يمكن أن تصلح للكثير من الأفلام والروايات والتحليل النفسي.

أبي شيخ من شيوخ السلفية، من عائلة متفرعة، أغلبها ينتمي إلى الدين كسياسة وكاستخدام، لا كروحانية وذاتية.

فهم لهم أداة للسيطرة وفرض الوصاية والأبعاد النفسية فيهم.

يرتدي الجلابية القصيرة ويرتدي ذقنا طويلا، وله أصدقاء كثر أغلبهم خُطبَاء المساجد بينما هو لم يكن يخطب.

لم يكن يدري أي شيء خلاف التفاسير والأحاديث ولم يقرأ غيرهما واقتصر على تكفير كل من عادى ما دُلِق فيه.

من المسجد للبيت للاجتماعات السرية لهم، ولم تكن أمي راضية عن تلك الاجتماعات أبدا، ولكنه لم يكن يكترث إليها.

السلفية لها أنواع كثيرة والسلفية المصرية تحتوي على الكثير من الأنواع أيضا، عرفت ذلك من معاشرتي لهم ومصاحبتي.

الأولى هي السلفية التقليدية، والتي تضم الجمعية الشرعية الكتاب والسنة وتأسست عام 1912 م. وجماعة أنصار السنة المحمدية، التي تأسست عام 1926 وتبنت الفكر الوهابي والسلفية التي كان منها والد صديقي الذي كان شيخا لهم جميعا وابتعد عنهم وثار عليهم وقاومهم.

الفئة الثانية من السلفية التي ظهرت في السبعينيات هي الدعوة السلفية أو المدرسة السلفية بالإسكندرية والتي كان أبي منها وتتأثر هذه المدرسة بشكل كبير بالعقيدة الوهابية في المملكة العربية السعودية. وأنواع أخرى أكثر تطرفا.

كان يبيع الماء المقروء عليه ويُخرج الجن المزعوم من الملبوسين وكان ذك يحدث في بيتنا القديم ويحدث في بيتنا الجديد.

كنت أضحك كثيرا على هذا وما أثاره ضدي مؤخرا كان أن أحدا أتى ولم يكن هو موجود فأدخلته واستغرب من شكلي واستهجننى بنظراته.

أُسبِب له حرجا منذ كنت طفلا عندما يأخذني أو يُجبرني على الجلوس مع أصدقائه، والأسئلة التي تُفتَح لها الأفواه ويعقبها عراك.

على المستوى الفكري كنت أتقبل نبذ أبي ونبذ المجتمع، لكن على المستوى الشعوري لم أتقبل الأمر، المعالجات الشعورية صعبة جدا مع كثرة الأحضان المفقودة.. أقضي ساعات طوية في التفكير والحديث في رأسي رغم أن لدي أخوين لكنهما لا يتحدثان كثيرا معي.

نحن ثلاثة رجال أبناء لبيت واحد.

لكن الحديث عن ذواتنا كله يتم سِرا بسبب قوة نفوذ أبي.

ورغم زواج اثنين من إخوتي، وتبتلي كانوا اجتماعيين يعرفون كيفية إدارة الناس ولا يعرفون كيفية إدارة أنفسهم، ولهم أسرار كثيرة لا تعرفها الزوجات أو الأصدقاء.

أنا المتبتل أو بزوغ، يقول عني الناس إنني جميل جدا يحبني أغلبيتهم ويتقربون إليّ لذاتي في الأغلب ليس لأنني ابن شيخ البلد ومالك الأرض.

أما الآخران، واحد منهم غليظ جدا يدافع عن أبيه بحرقة وعنف وتطرف وواحد منهم يميل إلى النساء والعربدة ولكن بسرية.

العنيف أو ثور لا تنجب زوجته، وإن أنجبت يموتون بعد أسابيع.

وهناك غموض كبير حول موتها، هل قتلها الوالد الكبير شيخ البلد، أم أخي؟

لم يكن ينفع معها لا شيوخ ولا رهبان ولا سحر حتى.

لست ضد أي شيء في العالم، والعربيد ضد عريه، والعنيف ضد كل شيء في العالم لا يتوافق مع مصلحته.

رغم أنه تزوج أخرى إلا أنه لم ينجب أبدا، ولا حتى لأسابيع ويموتون.

والأمر هذا يشكك في محيطه الاجتماعي في قدرته الجنسية التي تحدد رجولته المنتفخة.

وجدتي عشتار لم توافق على تمرير ابنتها التي حنطتها من رأسها حتى قدمها على زوجة أخي وكان هذا طقسا في القرية لمن لا تنجِب وأغلب من حدث معها ذلك من النساء تنجِب.

أنا أصغرهم لكني أفقههم في العالم، وأرحمهم.

اختار البزوغ لأن الناس أخبرتني أنني ولدت على قش وحيد أمام القمر في ليلة تمامه، وسمتني جدتي" عشتار" لأبي بزوغ.

ولا يجيبني والدي كالعادة عن سر مقتل زوجة أخي ولا ألح على شيء، لكنني صبور جدا على والدي، رغم أن رحمتي تضيع حقي كثيرا، وتضيع حقوق الآخرين.

بنا صفات مختلفة كل منا عن الآخر، أو ربما متضادة أو تكتمل بشكل من الأشكال الكامنة في آخر.

القرية على عكس ما يعرف عنها أنها فقيرة معرفيا واختلافا، مليئة بما لا يمكن أن يُتصَور.

جريت نحو المسجد بعد أن ألبستني أمي الجلابية الصغيرة، لأذهب لأبي، الذي بعد صلاة العصر يجلس مع أصدقائه في المسجد أو خارجه على المصطبة التي تحل محل السوشيال ميديا في العالم المعاصر.

دخلت إلى المسجد مسرعا ولكني لم أنتبه إلى خلع شبشبي لأنه كان جديدا وكنت اتباهى به، حتى استبشر أصدقاء أبي بي وقالوا: الشيخ الصغير، إلا أن واحدا انتبه إلى شبشبي، وقام بضربي على وجهي، ولم يفعل أبي شيئا، استغربت من ذلك وبكيت وخرجت حتى أبي ينادي ويضحك.

الذي ضربني كان هو الإمام الذين يذعنون له جميعهم فقد فهمت بعد ذلك هذا.

الإمام هو الذي يعطي دروسا لحفظ القرآن ولهذا استكرهت الأمر وأمي تَستكرِهه لأنها لم تؤمن بجدوى حفظ طفل أي كتاب بدون فهمه بالبداهة.

تم عزلي لوقت كبير حدثت فيه مناوشات كثيرة، حرمني من طفولتي التي لم أستطع الاستدلال فيها على شيء، فقط أشعر مشاعر كريهة جدا.

في مرة ضربني الشيخ على وجهي لأني لم أحفظ المطلوب مني، حتى ضقت ذرعا فجريت وأخذت مفتاح الباب ورميته.

وجاء لأبي في البيت يقول له ذلك، حتى ضربني وقال له: هات لك طفلا آخر، إن هذا الولد ملعون.

ليست أول مناوشة فكل يوم أسرق الخرطوم الأحمر الذي يأتي به ليضربنا حتى عرف.

أراقبه عندما ينظر لجارة الغرفة التي يُدرس فيها من الشباك، وأظل أُلح عليه أن يبدأ الدرس عمدا.

والذي زاد الأمر هو رؤية أخوالي وجدتي لأمي التي يمنعني عنها أبي التي أذهب إليها سرا.

صوفيون وهم من كانوا يُحضِّرون الحضرات في القرية، مما يستدعي شجارات بينهم وبين أصدقاء أبي وأبي في أحيان كثيرة، ولكنها توقفت بعد موت شيخهم جميعا، بحجة الكفر والابتداع والانحراف والخروج عن صحيح السنة والقرآن وأشياء كثيرة جدا.

هذا ليس أول موقف مع أبي بل كرة القدم أيضا.

ألعب كرة القدم منذ صغري، لست على عكس ما يعتقد الآخرون متوحدا بشكل كبير.

على الرغم من كراهيتي الكثير من الأنظمة مثل المدرسة والأوامر البيتية.

أقرأ أحيانا على الكمبيوتر الكبير الذي أحضره وذلك سنة ٢٠٠٤، ليسمع عليه القرآن ويستمع لشيوخه وأيضا للتباهي.

وفي المكتبات التي اشتراها من العراق بعد الحرب بعد عودته من السعودية.

مكونة من كتب الفتاوي لابن تيمية، وكتب ابن الجوزي، وسيديهات لشيوخ كثر وتلاوات للقرآن.

ألعب كرة القدم في البيت طوال النهار تقريبا، ولا أدخل البيت إلا للأكل والنوم، مع أولاد عمومتي وأصدقاء الحارة وأصدقاء المدرسة.

الحارة مسرح تتضايق من لعبنا فيه الكائنات اللزجة، لا يزالون

أشخاصا مقززين بالنسبة لي حتى خارج ما يفعلونه والتذمرات وإلقاء الماء فيها ولم تدافع عنا إلا جدتي بديعة.

نلعب قبل المدرسة وبعدها وقبل الدروس ونلعب في كل مكان فارغ في القرية، وننتقل من حيز لحيز اعتمادا على شكوى البيوت المجاورة.

أجيد الكرة ولكني لا أجيد الفوز، أجيد المراوغة، وبشكل مكثف وطويل ولم أهتم للفوز أو لا.

وهذا يزعج الشركاء معي في الفريق لأنني أراوغ لفترة طويلة.

اشتريت منذ الطفولة حتى توقفي أكثر من ٣٠ كرة قدم، بعضها ثقبت، وبعضها تم أخذها من بعض رجال البيوت المجاورة وبعضها ضاعت في الأراضي الزراعية.

طفولة مُدوية، الدفء تزامن مع الشوارع، المعاني تزامنت مع المنافسة ولكنها توقفت عندما أقسم أبي عليّ وعلى أمي بعدم اللعب ثانية والاهتمام بدروس القرآن وحفظها حتى تم عزلي عن الأصدقاء الذين كانت ذروة اجتماعهم هى كرة القدم.

لكل شخص لاهوت فردي معقد ومركب ومتعدد الأبعاد، ليس بالضرورة ذا متن ديني.

لكن الذي يجعل لاهوتي محتمَل لك ولاهوتك محتمَل لي هو الجمالية التي خارج الأفكار في كليهما ولكن أبي لم يفهم ذلك أبدا.

***

(7)

حاولت النوم عندما زارتني صديقتي التخيلية، وهذه المرأة التخيلية رأيتها مرة وأنا أصغر وهي أول معرفتي بالعالم.

يُطلَق عليها في السائد عاهرة ولكنني لا أعرف ما دلالة اللفظ؟

وأقصد بالعالم الاجتماع، الناس، المجتمع، ذاتي ورغباتها وتفاعلاتها وخروجها من الطفولي.

طفل غريب كنت، مضطربا جدا، لا يقلد الكثير حتى الجلابية لم ألبسها إلا مرة واحدة.

رغم أنني من قرية ولكن عائلتي ليست لها علاقة بما هو زراعي أو فلاحي سوى جدتي وأن أرض القرية جميعها ملك لأبي.

أبي وحيد لجدتي عشتار وحتى جدتي عشتار ليست لها أخوات أو لم نعرف لها أخوات لكن صديقتها الوحيدة جدتي بديعة.

لم أصل وإن صليت لم أكن أقول شيئا.

عائلة مشهورة من فرع عائلة كبرى لكن فرع عائلتنا مشهور بالوحدة والعزلة والمواهب والغرابة وتجليات كثيرة للمرض النفسي والعقلي والصرامة وما يسمى بالحنبلية نسبة إلى ابن حنبل في التشدد فلا ألوان بين أسودهم وأبيضهم.

كلما جلست مع أحد معارفنا أو يُقال إنه قريبنا يسب جميع الناس تقريبا، ولا يبقى إلا هو وحيدا واحدا كإله رفض سياسيّوه تعدده.

رغم أنني انتشي وما زلت من الأغاني، المدح، الربابة.. إلخ، ولكن دون اعتبارية لأحد في رأسي.

إن وُجِد المدح سيكون للأنثوي الحزين الوحيد أو المعذّب كجدتي عشتار.

هي بوّاحة، والبائحون والبائحات دوما كائنات شعرية جذّابة كونهم لا يتعالقون مع المشاعر والأفكار المجتمعية رغم فهمهم لها جيدا.

البوح دوما يوجد فهما كفعل فني، والكتابة أيضا والرسم، لكن البوح فعل أكثر انتشارا والبائحون أكثر.

أعتقد بوجود شخصيات هي دم العالم، هي منهم.

لم تعتقد بالزواج كمؤسسة بأي صفة كانت، حتى كان الأمر في البدء صدفة، وامتهنت الأمر بعد ذلك.

لاحظت صديقتي التخيلية وأنا أشتري شيئا من دكان لشيخ، تحرشتُ يدي بمؤخرتها ولم تستح أو تبتعد بل نظرت في عيني بابتسامة عريضة ومشرقة.

لم أكن استمنيت بعد لكنني بدأت بعدها ذلك؟ بعد وقت طويل من المحاولات.

وسألتني من أنت؟ ما اسمك؟ أخبرتها فلوت وجهها، وقالت: أول رجل أحببته من عائلتك.

لا أعلم عمَّن تتحدث؟ ولم يشفع لي جهلي، حتى قالت: اقترب، و قبَّلتني على وجهي وقالت: هل تعرف البيت الذي بجوار المطحنة؟

قلت لها: نعم

فقالت: تعال هناك بعد أن تعود للبيت ولا تخبر أحدا.

كم حولي من الرجال شبقون لها، وهي غير مكترثة ولا تهتز استحياء حتى، والنساء تنظر لها بقرف واستهجان.

ذهبت لها بعد العودة للبيت، فلاحظتني من مدخل البيت، وقالت: كنت أعلم أنك ستأتي، عائلتك معروفة بهذه اللامبالاة والجنون.

لم أتحدث ودخلت إلى البيت فقالت لي: سأرقص في الأعلى مع بعض النسوة، لتشاهدني، وعندما تكبر سأنجب منك طفلا!،(وأشارت إلى بطنها).

وحلمت بأشياء كثيرة منها أننا نكتب على الجداريات أنا وهي، جداريات البيوت ذنوب أصحابها، لعدم قدرتنا على فعل شيء أمام طاغوت الناس.

وسائل شاعرية بعد فقدان أمل تغيير أي شيء في المجتمع.

بعد وسائل فردية من الصراخ في الليل، حتى أفعال الدمار لنا كانت عنفا ضد الذات العاجزة عن فعل شيء من التحشيش للكحول.. الخ.

صوابيَّة الطفولة وغياب قيمها تماما في المجتمع أمر يعنف الذات ضد نفسها بعد بعض الوقت ضد كل شيء درءًا للتحول إلى طور بليد للعوام.

لم نجد في هذا المجتمع شيئا مما يرفعه كشعارات، ولا قيم، فاتفقنا على الكتابة على جدران البيوت كل ليلة لأحد هؤلاء الجهابذة في الفساد.

ولم يكن يخفى على أحد فسادهم، لكن التفاصيل جميعها لم تكن حاضرة لبعضهم عند جميع الناس، وهذا الدمغ بالكتابة يحرج، كون المعلوم والمحجوب أصبحوا عراة.

يوجد في كل المجتمعات أشخاص يحملون ثورة لكنهم وحيدون

باطنا، الذين يدركون الكثير بحكم عمرهم الوعيي والألمي وحكم تشعّبهم في العائلات وحكم الطفولة التي لم تتدمر بعد ولم تتأدلج عائليا أو دينيا.

لديها شيب يحلي وجهها النوراني الأسمر، ربة كديمومة ونعتي بالجمال ب "ربة" لكنني اخترتها ربة العدم، لأن العدم أقرب النعوت الذاتية لنفسي.

هي تكتب وجدت ذلك مفرقا في صفحات الكتب بعد التقليب في هذه الكتب المليئة بالكلمات، الفقيرة في المعاني التي أحضرها أبي.

كانت تضع دوائر على نقاط معينة.

لكن ما زال هناك مكبوت بسبب الكثير والكثير من السلطات، كل شيء، شخص، مكدس بسلطات وقوانين وأعراف، الصفو عزه غائب وغيب وألم وقرح في المدى.

كتبنا أول ليلة على جدار المدينة جميعها رفات ما تبقى بنا من ثورة وعنف رقيق ضد كل شيء مثلا على جدار بيتنا كتبتْ وهي تتغنج والكحل يربي في شهية لحز شرياني لأني لن أشهد هكذا لحظات حقيقية ثانية، ولن أشهد جمالا لا يثمن بنور حتى لو كان خياليا.

كتبتْ ويدي ترتعش من وطء تاريخي مع عائلتي "لكم دين العالم، وللوحيد دين الحزانى، أعلِن عن قاتلها".

وضحكت ضحكة غانية مغنِية الدنيا التي خفتت وتطيفت، وقالت "سأكتب على جداره، وذهبنا متعانقين، مشذبين الألم الذي يطفر والكفر الذي لا يكتمل من العجز إلى ظهر البيت، مسكت ال spray وكتبت" القضية التي اتهمت فيها، سرها مع مجانين الشوارع".

وقالت: وقد حاول اغتصاب امرأة ولم تتفق مع هوائه فقتلها ولم يشاهده سوى مجنون، كب كله لنا، في جلسة تحشيش، وغادر.

خفتَ جفنها، وعرج للأرض بعد الكتابة، ودمعت العيون بماء عشتار الذي رضع منه كل ما اختار خلوته وأهلية الوحدة.

وقلت لها" هيا لنذهب لبيت الأول، رغم أنني لا أثق في بيته، في سكنه للأشياء، إلى أقرب مسجد الصوفية الوحيد في المدينة".

مسكت ال spray ولم أشعر بلونية ما بداخله، فشرطت يدي في الحائط، جرفتها كأني أجرف كل شيء، سال الدم وترددت في ماذا أكتب"، وضعت علامات استفهام ونقاط وقبلة بشفتي المغموسة بالدم؟ "

وقلت لها هيا اكتبي على صدري ما تريدين، داخله فساد " فكتبت "رحمة فقط".

***

(8)

حزينا أنا المتبتل البعيد عن كل شيء ولكني أرى النور بَعد، ولو حتى بعيدا.

وحيد بلا أي جوار، ولا إرادة لي في ذلك رغم قدرتي على الاجتماع. أستمع إلى نبض الأشياء حولي، أمص الجمالية وأخيل أعمق وأُركِب أكبر وأُعقد هذه العوالم في رأسي.

دوما منذ صِغري أفضل أن أكون وحيدا على أن أحاط بعالم مزيف، الوحدة أكثر صفاء من الآخر الممسوخ.

ألم غموض أمي وموتها وحياتها يساعدني على الوحدة أكثر، على تأمل التفاصيل جميعها وفردها.

حتى لو الوحدة في غرفة دجاج وبلا حديث سوى مع وجهي في صحون السقاية لهم.. أسفل بيتنا الذي كان يسد الشارعين في القرية ووراءه أراض زراعية واسعة هي ملك لأبي وفي المرأى تظهر المدافن التي تفتح الباب وتجلس في مقابلتها كل يوم.

وحيدة أيضا حتى وهي تتكلم مع أحد.

الوحدة مفهوم أكبر من وجود أحد بجواري، الوحدة التي لا تنفك أبدا هي أن لا يفهمك أحد.

تحكي لي وأنا طفل ميثولوجياها وأنا عندما أحكي لها فلسفتي وميثولوجياي وشطحي.

قلت لها وهي صامتة تستمع بنهم:

ثمة روح في كل النصوص التي قرأتها، تناديني.

مِن ابن تيمية حتَّى نيتشه بعد ذلك، تاريخ النداء السري بيني وبين الكتب.

مفهوم النداء ذلك لا يصدقه أي أحد ممن حولي، لأنني أتحدث عنه دوما، في عيون النساء، الأماكن، المعاني.. الخ.

(فابتسمت)

لا أعلم ماذا يناديني فعلا؟ ليس كائنا، بل ما لا يتجسد.

أعلم أنني خرافي يا جدتي بالرغم من دراستي للعلوم بشكل كبير وحبي لها أيضا وتركها بسبب قوة نفوذ أبي وقدرتي الاجتماعية على التأثير.

إلا أنني لي الكثير من اللامنطقيات أو كما أسميها الميثولوجيا الذاتية.

وأُلاحظها حتى فيمَن يدَّعِي العقلانية في كل شيء لكن لا تتم فرضها على أحد.

(وابتسمت أنا ونظرت لها، لم تكن موجودة، فات أوان وجودها ولكني استمريت في الحكي).

غزاني التفكير العلمي منذ كنت صغيرا بعد قبول الكثير من الغوامض في العالم، والاعتقاد في أحقيَّة الزمن بكشف تكوينها وعِلميتها.

وإلى الآن ما زلت أعتقد ذلك لكن الأمر محير جدا ومرِبك، لأنه يضعني أمام ما أظنه معتقَدا وما يتضاد مع المنطق الذي بنى هذا المعتقد.

وإن اعتقدت في ما أعتقد لِم تتغير معتقدَاتي كل فترة؟ أم أنني دوما بلا يقين ولكن أكثر ما أصدقه هو التفكير العلمي من منظوري؟

فالإيمان بالغامض فعل منطقي ولكن رده إلى ما خارج المنطق، إلى متن.

أكبت ذاتي عن الكتابة في الفترة الأخيرة، المجاز يتشكل كأنه سينما

حية، المعنى يشطح في الروح وفي عينيّ، الوحي يتحرش بكل ما أُدرِكه.

أنظر للقلم على أنه أداة للممكن الذي لم أعد أؤمن به، كحيز لإشباعي.

وتستدعي الكتابة مرئيات الانفجار أو البراكين الأفريقية، أو الجداول المسعورة، أو مهابل العاهرات الأربعينية، لا الهدوء والرعاية والحدود الحامية.

الكتب متناثرة على السرير" مقال في فلسفة الدين، الزمان والأزل" "الإنسان الصرصار" و "التصوف والفلسفة" .. إلخ.، والأدوية والكثير من الأقلام والأوراق وبعض الفرش.

كلها أدوات لخلق الممكن، القراءة أكثرها، الكتابة أقربها، والرسم أجملها.

يُنادي أبي عليّ وأنا في خضم هذه الأحاديث في رأسي، لا أرد فيأتي إلى الغرفة، أسمع شبشبه وهو يسير حتى يقترب من الغرفة ويقف، ويفتح الباب فيُصدِر أزيزه.

ألف حولي البطانية كنوع لمحاولة التدفئة المُستعَارة.

سيكولوجيتي مؤخرا غامضة، لست سعيدا ولست حزينا، أنا بين قطبي الشعور بمشاعر متداخلة مع مشاعر أخرى.

تبادلات بسبب ثنائي القطب التي شخصني بها الكثير من الأطباء، بين أطراف الجهات، الذاكرة، المآلم والنشوات.

التسمية لما يحدث داخلي بشكل يومي وآني يُعاصر الهواجس، صعبة لأني مؤخرا لا أثق في اللغة.

لا أثق في اللغة ليس ككتابة فقط بل كحديث أيضا، كوسيلة للتواصل مع الأشخاص.

أقراني الجدد سبينوزا وفتشتغتاين و ليفيناس من أجمل من قرأت لهم وأصدقائي الدائمون نيتشه باتاي أرتو أدونيس أدورنو سيلان هلدرلين... وربما هم أصدقائي لنبذهم اللغة.

لا أستطيع مقاومة رغبتي في الانتحار.

هناك أشخاص تُقاوم، وهذه المقاومة أيضا فعل ميتافيزيقي، لأنني أؤمن أنني في زمن ما سأكون أكثر صلابة.

فالإيمان بزمن جديد حتى غير متوفر كون الآن لا يُمكن الخروج منه.

ومن هنا كان عدم إعطاء العهود، الخروج من العلاقات، عدم الوصل..

واستخدام المخدرات التي تغير حالة عقلي أصبح رمزية مقيتة عن عدم كفاية دوبامين المعنى.

فوت ميعاد الديلر لوهن شديد في الحركة والروح. الهاتف يرن وأنا أرى اسمه على شاشته ولا أستطيع الرد.

الجسد حامل هذه الكسارة التي تطحن المجردات، المعاني، الأفكار، الصور، المجازات.. تهدّم إلى نهايته.

إنه عالم متداخل جدا، عالم يضم فيه عوالم، وعالم تضم عوالم...

إن ما يُحدِث التيه أحيانا، كثرة ما لا نعرف، ونرى إشارات له فتكون المعرفة لما لا نعرف كبيرة، وهذه المحدودية المؤمن بها بكثافة تجعل الإنسان لا يثق فيما يعرف أنه شكل من أشكال الحقيقة أو الأدرية، لكن هذا بسبب المعيار المطلق الذي يقيس عليه، وهو المعرفة الشاملة.

أحتاج كما يحتاج الإنسان إلى رعاية مجردة، لوصاية حتى لو ثار عليها، حتى لو خلقها ليثور عليها ويناجيها ويناديها ويصرخ في وجهها..

يحتاج أن يرى بسبب طبيعة المخيلة شكلا مفارقا، يتعدى وجوده

أحيانا لخارج أبعاده كما عند الشيخ شمس.

حتى لو كان هذا الشكل غير ديني، بل في تطرف في شعور تجاه أحدهم، كره، محبة، الخ

كنت لا أفهم الإنسان عندما أجده لا يسأل أية أسئلة خاصة بوجوده، بما ورائه، بحدوده الخ كجدتي عشتار وبديعة.

لذلك كنت كمن يدافع عن الأحقية في الجنون وبدأت بكتابة مقال عن جنون نيتشه من وجهة نظر باتاي.

كنت أكتب بتسارع وأضع المراجع، وتذكرت مرض جدتي عشتار بالسرطان والذي أودى بها، كان سرطانا في المخ ولم يكن هناك علاج.

بل مجرد مسكنات بائسة لا تسكن ألمها الجسدي أو النفسي.

كنت أفرغ وجودي أو أنسخه على الأوراق، وبدأت بلا توقف في الكتابة.

لم تكن هذه أول الآلام الجوهرية ولكنها كانت أقساها، الألم من رحيل جدتي بديعة صديقة جدتي عشتار الوحيدة، والألم الدائم من رحيل أمي.

والأمر ليس في الموت ذاته بل رحلة العذاب لأمي قبل وفاتها جعلني أتحرش بالكثير من الأسئلة والمفاهيم، الموت يعيد ترتيب الشغوف، الأسئلة، الإرادات.. إلخ.

رأيتها حتى ضمر جسدها وأصبحت 40 كيلو وتقرحت من كل جسدها ونَهش الصمت لسانها لكنها لم تكن تقول إلا الحمد لله عندما كانت تستيقظ إلا قليلا.

واللغة للمُتألِّم هي أداة مأساوية عليه، اللغة للمتألِم سهم في ظهره.

***

(9)

لم أستطع احتمال ما شهدت في الكتابة، لم أستطع إلا الجري نحو الحضرة والترديد في رأسي

"لم أطف في الحضرة منذ مدة يا إلهي ففاعذرن، لا أعلم لِمَ أشك في الأشياء حولي جميعها ؟ مما سبب اضطرابا في رؤيتي لك والثقة بك ؟ إني أشك في كل شيء، أشك فيما تراه عيني وما يحدسه قلبي وأخاف من هذا الشك أن يؤدي بي إلى الكفر، هل ستحاسبني إن كنت أقتنع بأنك طيف ليس له متن موجود في أبعاد أو لا أبعاد ؟ لا أعلم يا إلهي، الأسئلة فقط لدي وفي رأسي الهواجس المضنية القوية.

اعذرني يا إلهي، أنا بشري خطّاء ناقص مقيد، وأنت الكامل التام.

لا أعاملك كما يعامل المسلم شيخه ولا كما يعامل المسيحي قسه، أحبك ولو وهبتني نارك، أحبك بلا أي مصلحة.

ولا أشكو لك أبي الذي يقول إنه عبدك الأنقى، فأنت أعلم.

أنت تعرف صمتي ولا أعرف لم كتبت كل هذا رغم أنني لم أدعُك أبدا في حياتي، أليست كل لغة موجهة لك تهجو قدرتك العليمة بكل شيء؟

لم أكن، ليس لانشغال دنيوي فأنت تعلم أنني لا أهتم بالدنيا لكن لأنني يخالطني شك فيك، شك في كنهك، وإن صوفيتي ذهبت لها خوفا من الجنون والعدمية، أنت تعلم كم اطلعت على الفلسفات

وفي كل مرة كنت أزيّنك فوقها وفوق عقلي وفوق حسي وفوق حدسي، لكن كل هذا لشعور، ليس لسببية عقلية، لا أعلم هل أؤمن بعقلي أم أؤمن بقلبي وأيهما أستخدم في الاعتقاد؟ أعلم أن العقل قاصر لكن القلب قاصر أيضا، وفي كل حياتي قلبي خانني كثيرا والتوفيق بينهما صعب جدا.

الايمان بك صعب يا إلهي والكفر بك أصعب، لكنني لا أريد أن أؤمن أو أن أكفر لكي أحمي ذاتي، أريد فقط أن أطمئن إلى إيماني أو كفري.

وأنت تعلم صِدقي الذي دمّر حياتي الواقعية، فالعالم لا يريده في أي شيء.

أفقد المعاني واحدا تلو الآخر، فقدت مع أمي معاني كثيرة ولا أقول لك ذلك لترممني بل لأنها تجربة قوية ونفّاذة في رأيي.

المجاذيب يبهرونني في الثقة بالنور، في التخلي عن العقل بهذه الدرجة المطلقة، إنني شككت من هذه الأمور ودخل سواد في قلبي.

إنني أصدقهم يا إلهي، أصدق تجربتهم وربما هي التجربة الدينية الوحيدة التي أصدقها.

كنت أستخدم التفلسف لإدراكك ولتحميلك على كل الدلالات التي أراها، إني خائف يا إلهي أن أفقد كلي عبثا، صوَّرتك كل شيء وخانني تصوُّري، ماذا أفعل؟

هذه الفترة أحياها بلا كآبة ولكن بتجرد شديد شعوري عن الأشياء والأشخاص وعدم الحاجة للتعبير، رغم أن هناك لغة في هاجسي منطوقة بخفوت، وأفكر كثيرا في عدم الحديث المكرر منذ ولدت في فلك الظهور، حديثي الأنقى بلا صوت بلا مكتوب.

أقضي أياما لا ألفظ كلمة واحدة وأفقد في هذه الأثناء الجهات والروابط التي تصنعها اللغة.

هناك لغة بيني وبيني يا إلهي، لغة خارج المنطوق والمكتوب، كل اللغات التي بيني وبيني هي لغة خارجهم، وهم أيضا اللغات التي بيني وبينك. لغات جمالية يُولَد منها أشهى المعاني لي وأكثرها تجردا من مخلوقاتك جميعهم، لكنني أفقدها هذه الأيام.

هل اللغة تؤخر إدراكي لك فقط أم أنها تساعد على ذلك؟ لقد تهت جماليا كثيرا وبالغت في تيهي من كثرة الأسئلة، أحلم أني أحضن مخالب وسهاما لانهائية ودمي يروي الأرض.

الطفولة أكثر الأوقات معاني، مجردات، الآن هي أكثر الأوقات عدما.

كسّرت صليبي يا إلهي، ولم أنظر أعلاه، لا أحتاجه لأعيش.

غفرت لصالبيني لأني لا أكترث لهم وأقسمت بكفر حواريِّيني بي علىّ بالرحيل، وأفرغت قلبي من العالم ومضيت خارجا فرحا ممددا على سماوات حزينة، أرفل خلقي براحة وسكون.

ابن الأرض قوامي مِن طينها، وعيني من عينِها.

لكنني الآن ابن الخارج، الخارج المفتوح، الذي ينتعش بحفري لاحتمالاته.

ابن القبيلة ابن القافية حتى سكنني الشعر.

ابن اللغة حتى سقطت في النور.

أهرب من كوني ولم يكن يعجبني أي كون سوى هذه الأكوان التي ينعتها العالم بالغريبة، عوالم الجنون وعوالم العاهرات وعوالم المصحات النفسية.

مللت من العوالم العادية والروتينية والتقليدية التي لا يوجد بها شغوف لي.

فقابلت هذا الرجل المجنون الذي قال لي " ستُجَن" وصوَّب اِصبعه نحوي "ستُجَن" وجرى بعيدا فرحا بشكل مبهر.

وكعادتي اهتممت جدا بما يقوله، كون هذا أمر به شغف كبير بالنسبة لي.

عدت للبيت فرحا ولدي شعور غامض ناحية العالم، هل له نبوءة ورؤى؟ لا أعرف هؤلاء المجانين، يشبهون شيوخي الذين في الكتب، رغم أن شيوخي ينكرون جنونهم ويسمونهم بالوجد العظيم.

هذه أول مرة أرى هذا الرجل، أو أنني رأيته مسبقا لكني لم أنتبه، كعادة المجانين لهم أمكنة يسيرون بها دوما ولا يخرجون منها.

لا أعرف هل هناك حد عقلي نصل إليه يُفقِدُنا عقلنا نفسه؟ أم أنه صبُّ الذات في المتخَيّل؟

أُخلِصك من ذواتهم، من تصوُّراتهم عنك الجميلة والمأساوية، أحاول تجريدك تماما لبلَّور ملون.

***

(10)

أنا العين الكبيرة التي ترى كل شيء ولا تتحدث، فقط تؤشر ولا تتدخل.

***

يبدو أننا جميعا رُواة لشيء نجهله.

هذا حديث المجنون في عقله في اللحظات التي يوجد بها لغة فيه.

"أنا مجنون، يسموني هكذا أو ينعتوني هكذا، كل الشارع يعرفني، البعض يحبني والبعض يخاف مني، أعرف الكثير عن كيفية سير الحياة في المجتمع ولذلك كانوا يخافون مني، لأنني أحيانا كانت تخرج مني كلمات حقيقية ضد سلطات أشخاص كثيرة مما كان يستدعيهم لضربي أو سبي أو حرماني من التجول في شوارعهم.

اسمي الحقيقي لا أتذكره ولكن لي أسماء كثيرة كل دلالاتها خارج اللغة من عوالم االصم، و كل سردي ربما حدث ولم يحدث.

كل ما أتذكره أو ربما يكون من خيالي هو أنني كنت مدرسا للغة العربية، وكان لي أخت، أعمل في مدرسة بعيدة حتى طفر جنوني قليلا قليلا، لا أعرف هل أنا من وجد في ذلك بُعدا لا يوجد في الحياة العادية أم أنه عطب عجيب في عقلي؟

لم أكن أحب حياتي الروتينية تلك، وكنت أريد تغييرها ولا أستطيع ولا أفهم ذلك من ذاتي، أن كل هذا كل ما فعلته كان من اختياري، ولكنني لن أدخل في المعضلات الإنسانية الفلسفية، إنها هذر عميق وأنا أريد تجربة الحياة في أقصى ممكنها للوجود.

هل يستطيع إنسان أن يجنن نفسه، أن يفقد نفسه عقله ؟ أن يشكل لنفسه عالما من متخيلات ويحيا بها ويفقد حسه بالعالم الطبيعي أو هكذا يقولون عنه ؟ ولكنني لا أعرف هل وصلت إلى ذلك إلى نهاية الجنون، لا أشعر بعد بالحرية الكاملة النفسية ؟

أحيانا أمشي في الشوارع ومن كثرة عشقي للكائنات الشعرية من الطيوف للمرايا للظلال الخ، كنت أرى كل شيء مرايا تعكس وأحيانا ظلالا وأحيانا طيوفا غريبة. لذلك كنت أحب الشعر لأنه يخلخل الحسي تماما ويتماشى مع جنوني.

كان هناك شاعر في شارع بعيد، كنت أسمعه يقول شعرا وأمشي أكثر من نصف ساعة من السادسة حتى ألحظه يذهب لصديقه ويفتحان النافذة في الطابق الأرضي ويبدآن في الحديث وهذا كل خميس. لم أكن أتدخل في محادثاتهما فقط أجلس أستمع، أفرد جسدي الملعون حامل الفناء والزوال وعليه القماش المهترئ الذي أخذه من القمامات وأسند ظهري ومعي السجائر المتنوعة الأجناس من كل العابرين ومن يرضى أن يعطيني واحدة.

يوم الخميس الذي لا يجلسان فيه يكون جحيما باقي الأسبوع بالنسبة لي، وتشتد علي الهلاوس كأنها تكثر مع حالة اللاشعرية بجنس البشاعة هل توجد يوتوبيا سوداء؟ إنها التي أحياها.

تكون وطأة السخرية أشد حينها من الناس، هل أعود بعقلي بهذا

الذي يحدث؟ جنني الشعر والآن يُعقلنني،لا.. لا.. كنت أفكر في كلامهما كثيرا وأرد عليه في رأسي وأناقشهما ولكني ولا مرة تحدثت بشيء، لا أتذكر أنني تحدثت منذ شهر ولا كلمة.

وقد عرفته من خلال حمله ديوانا لبودلير وكان وجه بودلير يظهر حتى تحول الشارع كله إلى وجهه في عيني، ولكني لم أستغرب من ذلك فقد كنت أرى أن الأبعاد النفسية موجودة في كل الناس وممكن تكون متحققة ولكن بدون أن يعبر عنها.

كان يقول قصائد له وكنت أنتشي، ولا إراديا كنت أتماوج برأسي وأصرخ حتى عرفوا من صرختي مرة وهو يقول "الله جَرح التصور بالأنثوي".

وصديقه يقول: العالم بلا أنثوية بلا ألوهة مكشوفة أو منطوية، الله خلق الأنثوي ليشف ألوهيته وذكوريته.

الشوارع مليئة وأفكر كم من المنشيات توجد خارج الغرفة التي عشت فيها الكثير من عمري، الجنون وآفاقه اللانهائية تريحني أكثر من المعارف والمنظومة والعلاقات.

لقد اكتفيت بالوحدة والجنون، كل مجنون وحيد هذه الوحدة التي لا يمكن أن تنحل لأي شيء. بعد أن سمعا صراخي ظنا أنها من آثار جنوني لا من آثار دلال الكلمة وحزنها لذلك لم ينتبها وكان ذلك قاسيا جدا. وتحدثا بعدها على أنه يريد مدققا لغويا للديوان فقال له صديقه ليأتي به وسيبحث عن مدقق له.

انتظرت حتى الأسبوع القادم حتى أسمع هذا الديوان بالتأكيد سيقرأ له منه وبالتأكيد سأسمع عسلا جميلا على الأذن الضوضائية.

ذهبت لهم في الأسبوع الذي يليه كالعادة حتى قالا لبعضهما أنهما

سيخرجان ويأتيان وسمعت أنه أعطاه الديوان، المخطوطة التي لديه وتركا الشباك الذي أجلس تحته مواربا.

قلقت جدا من شريتي ورغبتي في سرقته وأخذه لأقرأه ولكني خفت من اضطرابي وجنوني أن أفعل به شيئا كأن أقطعه أو أرميه بدون أن أدري وكانت هذه أول مرة أخاف منذ مدة كبيرة،هل يخاف من يجن؟

أخذته في النهاية وقرأته على مهل بتمعن كبير وجلست أدققه لغويا وكنت أتذكر قليلا قليلا القواعد اللغوية والنحوية التي كانت من جملة القواعد والتنظيمات التي نسيتها. لم أكن استخدمت قلما منذ سنوات كثيرة، يدي كانت ترتعش عليه، ووضعت له ملاحظات على القصائد ووضعته في النهاية مكانه، ولم أعد ثانية للمكان هذا أبدا لا لشيء بل لأنني قرأت في إحدى القصائد جملة كنت كتبتها بالضبط أول ما تركت عقلي وهي " تتسع الهوة بيني وبيني ويملأها المتخيل"، ولكني رأيته أمامي فجأة ولم أستطع كبت ما فيّ رغم أني لحظتها كنت بلا لغة فصوبت إصبعي له وقلت له "ستجن" وعدت لبيت مهدم مليء بالقمامة لأبكي، كانت هذه أول مرة أبكي منذ سنوات رغم أنني كنت حزينا فترات طويلة، فالجنون ليس نشوة دوما وربما هو خفوت اللغة نهائيا والاقتصار على دلالات بسيطة جدا".

أجري بلا توقف بعد الطواف العنيف والذي يَعنُف أكثر كلما كنت عائزا وتائها، عائزا للمعاني والمشاعر وتائها بين الدروب أو زاهدا فيها جميعا.

أغلقت عيني من مدة لا أعرفها وفتحتها فوجدت العالم كراكيب من نور، حتى مسكني أحدهم ولم أتبينه، وقال لي بصوت خفيض" تعال، اغسل وجهك" عندها نظرت حولي وجدت الكثرين على الأرض مطروحين.

كنت في الحضرة التي تبعد عن بيتي ثلاث ساعات ولم أفكر في كيفية عودتي رغم أني أذهب إليها بهذا البعد لأسباب كثيرة منها أن أبي ضد صوفيتي، سلفي يعتقد أنهم كفار، وكانت صوفيتي ليست خاصة بدين ما بل إنها منزع إنساني قبل التدين كله. وهو لا يعرف ذلك لكي لا يزيد الطين بلة، رغم أنني كنت أتشاجر مع شيوخي وكان الكثير منهم يتجنبني، إلا أنه كان هناك من يقبلني، وطلب بعضهم عدم قدومي ثانية إليهم من الشيخ شمس الذي كان صديقي الوحيد هناك والذي يحترم أفكاري بلا نبذ.

وهو من أخذني وبدأ في الحديث.

الشيخ شمس: لا ألومك على فنائك، لكن عد بكلك، لأنك هكذا ستفنى بعذاب كبير.

أنا: لا أستطيع تسليم عقلي إلا للنور الذي لا يتعين، لا إلى الأرض وناسها.

الشيخ شمس: منذ مدة كبيرة وأنت في هذه المتاهة، يجب أن تعبر ذلك، كلما طالت المدة كلما عمُق ألمك.

أنا: سأحاول يا شيخ.

الشيخ شمس: سآتي لأوصلك.

أنا: لست خائفا.

الشيخ شمس: أعلم أنك لست خائفا، لا يخاف حائز النور، فقط أريد استنشاق بعض الهواء.

***

(11)

تضايق أبي وغضب لأن الصوفية كفار بالنسبة له وأيضا لأن سلوكي تغير من نواح كثيرة أولها الزهد الشديد وعدم الاكتراث بأقوال المجتمع والأهل.

أكتب له ليست تبريرات للصوفية لكن آرائي، وأضعها له في الأيام التي كنا لا نتكلم بها.

وهذه طريقة علمتها أمي لنا أنا وأبي لكي لا نتشاجر، فالكتابة توضَح فيها الأشياء أكثر من الحديث.

تركت له على المنضدة في نفس المكان الذي أضع له ما أريد في صغري وكانت أمي حية.

هذا بعدما أحضرت كتب الحلاج وكتاب النفري المواقف والمخاطبات، وتشاجرنا لأنه قال لي إنهم كفار وكتبت ما يشبه دراسة له رغم أنه قطع الورق ورأيت النثائر على المنضدة مقطعة إلا أنني أكملت الدراسة ووضعتها له، وكانت هذه أول مرة يُقطِع شيئا.

أبي متضايق جدا لأن الأمر تعدى إلى الأفعال فطبيعتي أني أمارس سلوكيات تنبع عن أفكاري، فالأفكار ليست زينة بالنسبة لي.

عائلتي هي أكبر عائلة في القرية من حيث البناء الاجتماعي والكثرة والسلطة والنفوذ.

وذلك يضغط عليه وسطهم، فأنا أصادق جميع الناس وأدخن

المخدرات وأيضا أذهب للحضرة لأطوف أمام الجميع في القرية.

ولكنني لست مهتما بهذا البناء الاجتماعي والسلطة والنفوذ وذلك مصدر إزعاج كبير لديهم.

سُمعَتهم تسوء، وهذا كل ما يهمهم أما كُفرِي والجحيم المظنون لم تخاف عليّ منه إلا أمي.

لا أصدِق أيا منهم في المحبة والاكتراث.

ذهبت إلى المقهى المعتاد في آخر جانب القرية ناحية الأراضي الزراعية، لأجلس مع أصدقائي الذين هم من عائلات أقل قوة اجتماعية بالنسبة إلى النظرة العامة للناس وحتى بالنسبة إليهم.

أتصادق مع الجميع بلا أي حصر لأحد بسبب عائلة أو مال أو نفوذ أو سلطة.

المقهى رديء نجلس في الشارع أمام فرع النيل المشوب بكل ما يمكن أن يلوثه، المتدلي أمامنا، والبوص الذي يملأ الضفة.

كلمني أبي في الهاتف وقال لي أريد رؤيتك بصوت خشن قليلا فذهبت له بعدما أنهيت دور الشطرنج، لم أخَفْ من أبي ولكنني أتجنبه وهذه أول مرة يحدثني بعد أسبوعين.

عَلى علم أنه سيد البيت مهما تمردت فهناك واقعيات لا يجب إهمالها وإلا بت في الشارع كما فعلت سابقا.

لا أحبه.

فقط هو أداة للمجتمع وللآخر دوما، دخلت منزلنا الواسع المبني على طراز حديث مع وجود بلكونة واسعة في بدايته لكي نستقبل فيها الناس التي تأتي طلبا لمعونة أو معارف أبي.

جلسنا وحثّني أبي على مصادقة أشخاص من عائلات أخرى ليس ممن أجلس معهم، لأنه على حسب قوله "الصغير يكبر ويجب أن تتعاضدوا دوما، القوة تلوذ بالقوة".

فقلت له بصوت رافض قليلا: حاضر يا أبي سأحاول.

فقال بصوت رقيق: أنت ابني الأقرب ويجب أن تحمي عائلتك دوما بعدما أموت، وأنت تعرف السن لا يساعد لشيء ولا تدوم الحياة لأحد.

فقلت له: الله يطول في عمرك أبي.

قال لي: ولا تقترب ثانية من الحضرة، أنت تعرف أنهم كفار، وأن هؤلاء الأشخاص في النار جميعهم.

وأنهم انحرفوا وآمنوا بالكثير من الحلول لوحدة الوجود.. إلخ

ولا تذهب يوم الخميس إلى صديقك المجنون الذي تذهب له، صديقك الذي كان أبوه آية مفارقة للسلفية وشيخنا جميعا.

فقلت (بكبت وضجر): حاضر أبي.

لست مهتما بهذه الأمور وأحاول إرضاءه فقط بأقل قدر من خسارتي لحريتي.

رغم أني أجد في هذه العائلة العريقة أشكال مختلفة من السُلطة والعنصرية والتفاهة والأناوية فلم يكونوا محبين لبعضهم من الأساس إلا في الظاهر.

عائلة أمي مختلفة، معتدلة بشكل لا يضر بأحد ولا ينتمون لأحزاب سياسية مما أوقع أمي في وضع مقلِق.

بينما أنا لدي نقد ذاتي يطال أبعادي المجردة، يُفنيني ذهنيا في

الألوان فقط، وأحيانا يعصُر العالم كله في صمت عميق.

فقد تعديت مرحلة رفض السلطة الواقعية بأنواعها إلى رفض ذاتي.

وهذا الاغتراب حولني إن فتحت فمي إلى كائن مفارق.

هناك أشياء إن لمسها الإنسان فيه، إن وصل لها ذهب الشخص للغياب النهائي ولا تقوى أي محاولة لإعادته، منها التجريد حتى الوصول للعب في الحس ومنها إرادة التدمير المطلقة للذات ومنها الوجد لغائب.. وأنا لدي هذه الأمور الثلاثة التجريد واللعب بالحس، والتدمير، والوجد لغائب.

ولذلك أهرب من هذه الأمور بالرياضة أو الجنس أو اللعب مع الآخر ألعاب نفسية.

سلوكي تغير فلقد بدأت الرقص كثيرا وبدأ عدم النوم في التأجج ثانية بعد مدة غير قصيرة.

أصبحت أقل كلاما أكثر صمتا، أَنقى وجها للعارفين الوجدانيين، أَكثر بشاعة وغرابة للعوام.

وبقيت فترة لا أخرج من البيت مُذعِنا مستكرَها بسبب أبي.

ولكني أرقص هذا الرقص الطواف.

بدأ الرقص والطواف ليس النظري من الصوفية بعد الألم الفكري فذهبت صدفة إلى حضرة كانت في الشارع، استدعاني النغم من بعيد و "هيه" ولدي نسب نفسي من جدتي بديعة للرقص وعشتار.

وتساءلت بعدها هل أؤمن بالجمالية فقط من كل شيء؟

ولأنني لا أعرف الذهاب للحضرة هذه الأيام، أرقص على سطح بيتنا القديم كنوع من التداخل في الفجر مع الانسحار اللوني والتزامن مع

جمالية العالم في هذا الزمن على أنغام أوبرائية خفيضة لكي لا أوقظ أحدا وأتلاشى وأتلاشى عاريا بعد خلع كل ملابسي، والتمتع ببرودة غير منظمة تؤثر على جسدي فيما بعد ولكني أكرر ذلك دوما.

لم أعد أكترث بالنعت بالجنون من الأشخاص حولي، بل شجعني ذلك وأعطاني حرية أكبر للأفعال.

***

(12)

بيتنا القديم محوري في القرية، بيت عال وضخم ولا يحيا فيه إلا أنا وأبي، بعد انتقال أخوي بعيدا وعدم مجيئهما إلا نادرا جدا.

ليس هناك متسع مكاني يسهو فيه الآخرون عني إلا في سطح البيت، والمقهى دوما مكتظ.

ليس هناك ضوء إلا ضوء شفيف للقمر وضوء المصباح الاصفر المقزز الذي هو الشيء اللاشاعري الوحيد في الحدث في الشارع.

وقلة الضوء تلك تصنع هالة من الغموض رب الولادات النادرة، وظِل بسيط لجسدي الحزين وهو يرقص ويفي بنذوره الشعرية.

امرأة بسيطة الملامح على قدر أكلي المسافة بيننا بعيوني، تمسح وجهها بعيدا في البيت القريب، والقمر يحرر عتمة الأرض وجسدها.

لم أكترث إلى نهاية التأمل في وجوه بعضنا وعيوننا ولا الهدوء العميق والطمأنينة إليها. لم أرها ولا مرة خارج الفجر وخارج زمنية رقصي رغم مروري من نفس الشارع الطويل لبيتها كثيرا ولم أخرج إلا لذلك، حتى ظننت أنها صنيعة مخيلتي البائسة ورؤى الدراويش الملعونة.

بسيطة فيما يبدو لا تفعل شيئا في حياتها أكبر من التمتع بجماليات الفجر ولكني لا أعرف شيئا عنها باطنيا، فكل إنسان مهما كان عاديا في الظاهر ممكن أن تكون لديه عوالم عظيمة في الداخل، فجدب الواقع ترويه حلوى المخيلة.

أراها من سطح بيتنا، بيتها كان بعيدا قليلا في الخلف أمام المسجد الرئيسي في المنطقة بينما أرقص خلسة قبل الشروق ولا أعلم هل تراني وأنا أرقص أم لا أو تلحظني وأنا أراقبها.

ولكني بعد عدة مرات وجدتها تنظر بوضوح إلى رقصي العاري.

أكبت وأكبت بلا حد هويتي ولكنها تخرج كشطحات في السكر أو في التحشيش لذلك أتحاشى الشرب مع أحد، رغم أن بعض المسكرات تحتاج المشاركة وبعضها الآخر لا، ولكنني لم أكن أشرب في هذه الأوقات لأن جماليات الألوان كانت تعادل نشوة أكبر مُنتشٍ لدي.

التخبط اللوني والشكلي دوما يصنع مثل تلك الأشكال الهندسية وغير الهندسية في مرآي بلا أسباب سوى إمتاعي واستهلاك وقتي لقلة المثير حولي.

هاجسي فضاء لتلاشي أي حد وأي ثنائية.

تطاحن من العوالم، عالم من عوالم المجانين وعالم من عوالم المرضى العقليين، وعالم من عوالم الآلهة .. شبكة كاملة من الممكنات المفتوحة بلا نهاية.

دوما نحتاج إلى طيوف بعيدة حتى لو كانت تهمل وجودنا درءا لعدم الثقة في الممكن أو في الجماليات غير المنظورة.

منفلتا من كل الحدود الأخلاقية ولا حد لدي لتذوق جمالية أي شيء فكل شيء يمكن استخراج عالم مجنون منه.

لم تكن لدي ثوابت مرجعية أعود إليها دينية أو غيرها وسبب ذلك أزمة طويلة بالنسبة لي، لأن تلاشي المتن جعلني تائها.

لذلك أبتعد عن تأويلها بجنية أو حورية ملغومة بالألوهي.

ولم أستطع الذهاب إلى المسجد لأراها في الفجر عن قرب حتى لو لم أصلِ بكلمات وأتفوه بشيء لأنه بالرغم من ذلك وضده لما أعتقد كان البيت عاليا بقدر لا يمكن فيه رؤية من على سطحه.

أبي يريد هدم البيت لأنه لم يعد يصلح للسكن وأنا أرفض ذلك وكان هو لا يفهم سبب رفضي.

نوستاليجيا جدا أتذكر الأشخاص والأحداث برائحتها حتى.

بعد أقل من شهر سمعنا خبرا بشعا بانتحار امرأة من الطابق الرابع في منطقتنا، في الشارع الذي يلي شارعنا بشارع، وهي تلبس خلخالا رمي بعد الفجر أمام باب المسجد.

وهرعت إلى الشارع بعد سماع صوت عال جدا وجري الأطفال، مليئا بالتساؤلات هل يا ترى هي من كنت أرى؟ تلبس خلخالا وعارية بالتأكيد هي.

تداولت الأقاويل والثرثرات حول هويتها، إنها كانت خرساء تسكن آخر طابق وقد أتت منذ مدة بسيطة للمنطقة وأنها بنت رجل من القرية، وآخر يقول إنها عاهرة رغم أن ولا مرة شُوهد أحد معها.

ولكني لم أصدق كل ذلك حتى قالت الشرطة إنها مصابة بلوثة لما وجدوه من أدوية نفسية.

لم يجدوا هوية أو أي شيء يدل عليها، فقط بعض الملابس لرجل في المكان لكنهم راقبوا المكان كثيرا ولم يأت أحد.

لم أرها ثانية إلا في حلم وتخيل، الحلم مُذَهبة، الوجه من كسور بلور بني، الهيكل يحج إلى كله، الشفتان مرافئ مجروحة لكل تيهي ملونة برمان مفروك، الروح نبوية.

التخيل في مكان غريب وهذا بطبيعته ككل الأمكنة، فأي سجن عند المجنون غريب، أي مكان به جدر لا تتناسب مع مخيلته، أي مكان يجعله يدرك محدودية العالم فنحن نغش من المكان أحيانا كثيرة وسعنا النفسي، هكذا هو العالم وهكذا هي الأوراق.

المجنون هذا استعارة كبيرة عن الذات المتألمة، الشاطحة، الغرائبية، المفارقة، البعيدة.

أحيا في سينما ميثولوجية في مرآي، قصص ميثولوجية أختلقها بلا إرادة مني بل سلاسل قصصية.

رغم أني سابقا لم أكن مؤمنا بالخرافات ولا حتى أهميتها للتخليق ولكنني أؤمن الآن بأهمية خلقها ولا أؤمن بها هي، لأن خلقها هو خلق فني أما الإيمان بها فهو معضلة عقلية.

وعقلي شديد التجريد وإلا لما كنت خلقت هكذا أشياء بعيدة عن يومياتي نهائيا، وما تجاوبت مع السؤال عن أمي بهذه الطريقة الذهانية.

لا تعتمد على الفكر لتحصل على معنى لوجودك، الجمال يفضي إلى حد ما عن ذلك.

لا تعش ذهنيا وتنس عاطفتك الفنية والشعرية.

ورغم ذلك كانت لي حياة مع الشخصيات الخيالية والأصدقاء طوال حياتي، أحدثهم وأستحضِرهم ويرعونَ وحدتي وحزني أو هكذا أظن، وأُسميهم جميعهن بفويد وهذه المرة استعارة عن امرأة الفجر.

بدأت فويد في الحديث:

- هل وقعت في الحب من قبل؟

: لا أعلم لكن أظن نعم، أنتِ؟

- لا، أنا لا أفهم ما هو الحب، بالنسبة لي هو احتياجات فقط.

: التعريفات فاسدة لكُلِ مفهومه، لكنه انخطاف لا منطقية لقلة معلوماتنا عن ذواتنا والآخر.

- أجد أن الحب هو فكرة يخلقها الشخص عن شخص آخر ويحب تلك الفكرة التي لديه في خياله، لا يحب الشخص نفسه بل الفكرة التي لديه.

: أليست تلك أيضا مع ذاتنا وفي أي علاقة؟ يمكن أدلجة كل شيء بالعقل والمنطق لكن ألا يبيحوا غامضا لا يعرفونه، يسمح بتأويل كل فرد لأي شيء بأي شيء؟

- مع ذاتك القناع يسقط لكن لا يمكن أن تكون لديك فقط فكرة عنك لأنك أنت مصدر الأفكار بينك وبين نفسك.

: لا لا نتحدث عنا، إننا احتمالان ضئيلان، كل شيء محقق، يوجد تصور عني لدي، هذا أيضا، أقصد فرق التصور عن الجوهر إن كان متماهيا، ليست محاججة أو جدلا، أنا أتناقش معي أيضا وقلما أجد ألسنة بها لعابي الفوضوي.

- ليس ضروري أن يكون الشخص غامضا، لا أنكر أن هذا الشيء يزيد من فرصة أن يقع الآخرون في حبه لكن سأعطيك مثال ذلك، فتاة تحب شخصا لطيفا هادئا ولديها فكرة مثالية عنه، و بعد ذلك قام هذا الشخص باغتصابها أو التعدي عليها بأي شكل من الأشكال، في هذه الحالة تفقد حبها تجاه هذا الشخص.

: لا يا void، لا أقصد غامضا بالشكل المعتاد، أي شخص غامض

بدرجة لأنه لا يعرف كله هذا ما قصدت.

- هذا الفعل الذي قام به هو حقيقته فلماذا تفقد حبها تجاهه إذا كانت فعلا تحبه هو وليس الفكرة التي لديها عنه.

:طيب لنمشِ، لِمَ تفترضين لا واعيةً أنها ترفض اغتصابها؟ لِمَ تضعين معيارا بعيدا خفيا ببشاعة الأمر، أنا أفكر معكِ.

- اعلم أنه أمر بشع لكنها حقيقة ذلك الشخص.

: الغريب أن كل ما نملك من تساؤلات هي لأن معاييرنا غامضة، لأن لديكِ معيار أنها لا يمكن أن تحب جلادا بشعا هذا معيارِكِ فقط.

أظن أنه لا يمكن اختبار العالم إلا في ذواتنا.

- في تلك الحالة ستعتبر مازوخية ومريضة نفسيا بالنسبة للمجتمع، أنا الآن لا أضع معيارا محددا بل أحاول أن أفهم و أصل لجواب فقط.

: هذا سؤال آخر: من حق الشخص التلذذ بالعذاب؟ وهل حرية المجتمع لها من الأصل قيمة، أنا أرفض كل ذلك ! كل المعايير لكن صدقيني اللغة والوقت قليلان.

- بالنسبة للعالم والمجتمع أم رأيي الشخصي..؟

: يجب التحدث كثيرا لتفهمي وجهة نظري، أنا أظن أنه تدوير عدمي غريب هذا العالم، مليء بالوحل وضعت فيه أبعاد زمنية وبعض الوهوم لذرة في القعر.

الوصف الذي قلته، هناك معيارية اللغة تقوم على الثنائية، الوحل للتحقير، الوهوم يجب أن يكون هناك حقيقة، القعر للشكل الوجودي للعمق، أنا أفكر حتى في ألفاظي، الأمر أصبح صعبا جدا.

-أظن أن هذا الأمر أعمق مما يبدو عليه، فهمت قصدك.

- ذا سؤال آخر هل من حق الشخص التلذذ بالعذاب؟ هل تستطيع أن تختصر هذا الأمر في كلمة؟

: من حق الشخص أن يتلذذ بما شاء مهما كان طالما لا يؤذي أي أحد لأنه إن آذى يتعدى على حق آخر في البؤس.

- و إذا قام بإيذاء شخص آخر ليحصل على متعته...؟

: كنت سأقول لكِ، كيف نعرف رغبة الشخص باللغة؟ هذا سؤال آخر أم بظننا عنه، إن قال لا ولكنه يريد نعم، من تحكمنا اللغة؟ الأمر يجب التخصص والتعيين فيه، كيف نعرف رغبة الشخص باللغة؟

- اللغة وسيلة فقط أما الفكرة والمتعة نفسها التي سيحصل عليها ذلك الشخص لا يمكن أن تترجمها الكلمات أبدا.

- أقصد كيف تعرفيت أنه موافق أم لا، ليس هناك أي متعة في عذاب شخص موافق على أن يتم تعذيبه.

: هذا رأيك لكن ليس من حقك منع ذلذل

لا أعرف الصوت ولكني أتكهن بلا كهانة العالم، نغمة عود عبد الوهاب، والنظرة تشكيل غائر لسقوط اضطراري للنور على شمول عتمة.

لا أدري كيف أكتب بعد، رغم شكي في اللغة، في جوهر الحمولة لنقلي لك بأي درجة حتى، وشك الشاعر في لغته كشك النبي في إلهه!

لا أستطيع الكتابة بتنظيم كون العالم يدور بعد دفقة هيروين كبيرة وزجاجتين من الكحول، الخفة التي أجبر ذاتي عليها، كوني هذه الأيام معكرا بفعل المعاني المغتربة، فأبيح دماري.

بدأ الخيال يظهر ويظهر في الليل أكثر من المدى. اللغة تتعبد حول

يدي، الفقرات الكونية تُنْظَم، أي إبرة تتشاحن مع البعيد ووجوده؟ لِم تتكوني مع كل تخالس مع كل الآلام؟ لم تتزامني مع آناء الانتحار والبداء؟

أنا غيب أعرف، غامض بنسبة مادة قليلة، لكن النجوم تدور في سلسلة حول رأسي.

العين برأت من العالم، ورأت فيكِ فقط، والبقاء زوال في أي نص لكِ.

ولم أرقص من حينها إلا وتذكرتها وصنعت بعد تتبع قبرها مكان الشاهدة فتاة ترقص.

ولا أردد سِوى لا تخذليني بمفارقة منامي حتى لو فرقتنا بلاد العرب وآلهة الأديان والأبعادِ والتراب.

أبي يستغرب من بقائي في البيت لمدة طويلة وعدم الخروج وهذا الحدث أول موقف أشك فيه في منطقية العالم وأشك في عقلي.

لست متأكدا هل كنت أراها أم لا؟ لذلك لي متن في تصديق هذا المجنون أني سأجن!

وضعت لأبي الورق اليوم الذي كتبته في الدراسة.

أحرق أبي الأوراق هذه المرة بلا أي انتظار حتى أني شممت الدخان وأنا في غرفتي وقمت مسرعا لأرى ماذا يحدث، نظرت له نظرة عميقة ولكن هذه المرة غير خائفة ونظر هو بشكل خائف وغاضب أيضا.

لا أعرف كيف تلقيت نظرته بما أنني كنت إلى حد ما خبيرا في تشوف العيون خاصة.

يظن بذلك أنه يستطيع إكراهي من وازع أبوته ومحبتي المظنونة له أن أترك هذه الأفكار التي بي.

لقد تغير جدا بعد وفاة أمي، صار عنيفا في اعتقاداته، كأن أمي مرهم لكل التطرف في داخله وداخلي، الأفكار هي الأفكار التي لديه ولدي، ولكننا أصبحنا بشكل ما أكثر حدة في التعامل معها، ولكن أبي مِن المستحيل أن يغيرها أبدا، كان ممكن أن يطورها ويتطرف فيها أكثر.

حتى أنه ترك غرفتهما وأصبح ينام في غرفة أخرى وأصبح سلوكه ناحيتي مختلفا، لا أعلم هل نسب الأمر بسبب الأفكار فعلا أم أنه بسبب أني أذكره بها أو أني المُتعالِق الوحيد مع طيفها الباقي؟

أظن أن المشاعر الإنسانية أقوى من أي شيء يحاول تغييرها رغم أن حدسي خانني كثيرا في ذلك.

***

(13)

أمي لديها حس صوفي بعيد حتى ولو لم تعلن، لديها استغراق ما في التأمل في الدين حتى، وجدتي كذلك أيضا واستشفت أمي منها ذلك على عكس أخواتها وإخوانها الذين أغلبيتهم يذهبون فعلا ويقيمون الحضرات.

أبي يتشاجر معها دوما ولكن ربما أنها لم تفعل سلوكيات تستفزه بشكل ما ظاهر للناس، فهي لم تذهب لحضرة يوما.

حتى أني أتذكر أني استيقظت على صوت جدتي بديعة في السابعة وهي آتية لأمي بالخبز الرقاق والعسل الأبيض.

وتنادي بعلو صوتها، وصوتها شجي تستعمله في الغناء أحيانا والبهجة غير المعتادة.

على الرغم من قلة المال لديها، لكنها أكرم منهن جميعا.

لديها صنبور مفتوح للعابرين وأكل لمن يأتي من خارج القرية من بائعين متجولين، أو مسيحيي الخياطة وبيع الملابس.

أوصتها جدتي عشتار على أمي لا على ابنها قبل وفاتها.

تأتي لها في العيد قبل أن تذهب للبناته، أبي لا يستسيغها لأنها تكشف رأسها وكانت تُقبِّل أقاربها بصفاء ونقاء وتحضنهم.

حارة "بديعة" ليست حارة عادية، تحوي الكثير من الدفء الصافي لنساء كبيرات هن ربات بيوت كثيرة.

ينعتها بالجاهلة وأمي أحيانا تتشاجر معه وأحيانا لا، ولكن جدتي بديعة لم تهتم حتى لو سمعت سُبتها منه، لم يمنعها ذلك عن المجيء، فبعد وفاة جدتي عشتار اهتمت هي بأمي.

أمي مقطوعة عن أهلها بسبب أبي ومعاملته القاسية.

عائلة أمي عائلة روحانية، منهم من يذهب للحضرات ومنهم من هو نقي وليس له علاقة بالطقوس، لكنهم بعيدون عن التشدد والسلفية.

حتى في هذا العيد أتت عائلة أمي كاملة على غير العادة ولكن أبي عاملهم بجفاء وبدأوا يتحدثون.

أبي يثير المشاكل بدون داع وبدون مقام.

أبي: هل ما زلتم تذهبون للحضرة الكافرة؟

خالي: وما علاقتك بذهابنا أو لا؟ هل أنت الله؟

أبي: كفار وزنادقة.

وبدأ عِرقه الأحمر ينتفخ في رقبته وقام من مكانه، حتى قال خالي للبقية هيا لنذهب، وهموا بالخروج حتى ذهبت أمي وراءهم ودخل أبي وخرج ثانية يشدها من على الباب.

في هذه الأثناء جاءت جدتي بديعة التي شدت يده وقالت له "إن لمستها ثانية لا تعرف ماذا سأفعل بك؟"

فقال لها :ماذا ستفعلين؟

وشد يد أمي بقسوة وبعنف حتى خلعت شبشبها المهترئ ونزلت على رأسه بالضرب.

صغيرا كنت وغرقت في الضحك من الموقف، وفرحت في داخلي

الذي أصبح يقفز كسمكة وهي تجري وراءه.

لم أكن حينها أفهم شيئا، لم أكن أعرف ما هي السلفية؟ ما هو الدين؟ يأخذني معه للمسجد وأكره الذهاب معه، لكنني أحب الذهاب مع أخوالي الذين منعني عنهم تماما بعد ذلك.

ويضربني بعد العودة لأنه نبه علي ألا أسأل ولكني لم أكترث للعقاب، الشغف للمعرفة أكبر من أي عقاب أو ألم.

وكل مرة يتكرر الأمر حتى مل من أخذي ومللت من الأسئلة لهؤلاء الناس الذين تحمر وجوههم من الأسئلة ويقعون في الحرج والخيفة.

لم يقبل أبي أن تذهب أمي لجنازة جدتي بديعة لكني ذهبت وأخذت أمي بعد ذلك إليها، وظللت أزورها رغم عدم إيماني بوجود شيء في المدفن سوى بعض العظم.

توفت جدتي بديعة وتوفت بعدها في خلال ثلاث سنوات كل نساء الحارة الكبار، والصخرة الكبرى التي تجلس عليها تمت إزالتها.

أتذكر بعد كل مأساة خبزها الرقاق، صوتها الشجي، حركة يديها ورنة غوايشها ومنديلها الأبيض المهترئ الذي كنت أحمله دوما في جيبي.

ألمها المستمر على عمي الذي توفى شابا ولمعة الحزن التي ما فارقت عينيها منذ عرفتها.

مزاحها وضحكتها وحكاياها الميثولوجية عن جنية النيل.

عروقها الخضراء المنتفخة على الجلد الرقيق الذين ورث أولادها جميعهم، هذه الصفة منها.

حبها لنا أنا وأمي وجميع من في الحارة وحنانها المطلق، نداؤها

علينا وإعطاؤها الجنيه لي.

حقنة الأنسولين التي لدغت يديها من كل مكان وحمولتها النفسية الشديدة.

البلكونة ومكانها على الكرسي متأملة العابرين والعابرات بصمت.

والصخرة التي تجلس عليها مع صديقاتها في الحارة ومُسامراتهن الحلوة وخوفهن على بعضهن ومساعدتهن لبعضهن، مبادلة الخبز والسمنة.. الخ.

أتذكر هذه النهاية التي وهنت فيها ومسحي للعابها ورعشة يديها وندائها علينا، رغم وحشية أبي بعدم ذهاب أمي لها.

جسدها الملفوف في الأبيض ونصاعة وجهها في الغسل.

الألم الطفولي كان بالغا بفقدانها وظللت لأني لم أكن أفهم ما هو الموت، أسمع أغنية عبد الوهاب كلما أتت في الراديو "هان الود عليه" لاعتقادي أنها سافرت وهان ودنا عليها.

تأخذ الأنسولين الحقن ويؤلمها جدا فتظهر النقاط الخضراء الباهتة في كل يدها كل صباح وبعدها تسمع الراديو وتملأ "القلة" ولم أرها منذ وعيت تلبس شيئا إلا الأسود.

في الظهر تخرج لحارتنا لتجلس مع صديقاتها ربات الجيران لتحكي كل منهن مآسيها اليومية يُعلقنّ على كل شيء يمر أمامهن.

صغيرا أجد في الرقص وخصوصا تحية كاريوكا قبل أن أعرف اسمها بعد ذلك، مُتعة جمالية.

التلفاز دوما في أحيان كثيرة يأتي بها في أفلام.

جدتي تشاهد كثيرا المسلسلات والأفلام القديمة رغم حزنها النبوي

على أولادها المتوفين.

بعد أن تُنهِي فترة الصباح مع الراديو، أمي تستغرب من انتباهي للرقص ووقوفي مشدوها أمام التلفاز.

حتى في الأعراس، لم أحب العرس نفسه لكني أذهب لأرى الراقصات على المسرح الخشبي، وجدتي من تأخذني بمراعاة أمي.

سامية جمال وتحية كاريوكا وبديعة مصابني من أجمل من رأتهم عيني وقرأت كثيرا عن حياتهن.

ربما نسخت حريتهم في الرقص جزءا فيّ، وهذه هي قدرة الجمال في توزيع المعقول كما قال رانسيير.

لم أنتبه إلى الشيوخ ولا إلى الوازع الديني ولأن عائلتنا محافظة لأعمامي رغم وجود أعضاء منها كثيرة مرهفين للغاية.

لا أفهم كيف ينجذبون إلى الصوت العالي للشيوخ ويقلبون المحطة إن أتى رقص وأتشاجر معهم.

بعد أن كبرت أغلى هدية قدمتها لأحد هي بدلة رقص لصديقة وخلخال لصديقة أخرى.

جدتي ترقص أحيانا وتُحضِر أمي، شهدت ذلك مرة واحدة.

أنظر لوجه أمي وهي فرِحة، ربما لم أرها سابقا هكذا.

***

(14)

عانيت من بعض أنواع الإدمان على مر حياتي، عانيت من إدمان الكحول أكثر من مرة ومن إدمان المخدرات بأنواع مختلفة.

كله تخلصت منه إلا الكتابة والتخييل والتأمل في الغرفة، الحيطان، لم أفرغ أبدا من ذلك.

وكل مرة أفلت من أي إدمان جسدي، بالتخلص من الشعور بجسدي نفسه، مهما تلوّيت وتألّمت، كان الأمر أهون من إدمان معنى أو شخصا أو تعبيرا أو تأملا.

رغبتي في التأمل في أشياء معينة تجذبني للحركة والذهاب لأمكنة حضورها.

تحدد النشوة السابقة قدرتي على احتمال الانتكاسة القوية التي تتبعها قبل نشوة أخرى أعلى، والغريب أنه مهما كان الآخر شريكا في النشوة لو جنسا لا أخذه في أفق الأورجازم معي، وهكذا مع أي مخدر أو كحول.

قد تؤدي النشوة العالية جدا إلى الانتحار وقد تؤدي الانتكاسة العالية إلى الانتحار، ولكن الفرق أن في الانتكاسة تكون الذات ثقيلة بينما في النشوة تكون الذات خفيفة، والنشوة بالتدمير تكون لترك كل شيء لعدم وجود أمل في تصور نشوة أعلى أو ألم أعلى.. ساعد الإدمان على فراغ المعاني، ساعدت النشوة على السوداوية لأن لا أفق تبقى يُنشِي.

أذهب لركوب المواصلات العامة لكي تلتقي عيني بأي امرأة ويحصل

ما يسمي " اتصال العين" أو أذهب لمقهى مخصصا لسماع ضحكة أحدهم، يضحك من قلبه بلا أي زيف من ذلك.

أتعرى عندما أعرف أن الحجاب هو ما يعطي معنى لأي شيء، لا الانكشاف المطلق.

لكن رغبتي في الفهم أكبر من اهتمامي بحياتي.

وأفعل ذلك دوما، رغم أن هذا ضد التأمل في نفس الشيء كثيرا لأني أفنيه بكشفه إلى حد عدمه، لذلك كانت تختفي الحيطان وكل شيء.

أنا الذي أعدم نفسه لفرط رغبته في معرفتها، الذي أفنى العالم لأنه تأمله بلا حد وجوده.

بدأت في الرسم على الرغم من أن أبي حذرني كثيرا من ذلك وقال إن أردت أن تفعل ذلك خبئه عني أو لا ترسم في البيت، لا أريد شياطين متجسدة.

بدأت الرسم منذ الصغر ولكني أرسم إيروتيكيا، كل من حولي ضد ذلك، حتى خبئت وقطعت كل ما رسمته وهجرت الرسم.

ولكني لم أهجر رؤية اللوحات فقد كان المرأى دوما فنيا في عيني مهما كان روتينيا، وتعودت على قراءة اللوحات شعريا، حتى غزت وغذت اللغة كل هاجسي.

حتى أمي ضد ذلك، الرسم، مما جعلني أتساءل هل يمكن أن يكون الشخص إنسانيا وهو ليس حرا؟

ولكن الحرية ليست مرتبطة لدي بترك الدين أو بالتمسك به، بل هي أعقد ما وجدته كملكة الشعر.

***

(15)

الصلة التي جعلتني أتعارف على الكثير من الأشخاص هي الشعر ليس المكتوب بل الشعر الحي خارج المكتوب، ولكن بقى سبب تعارفنا الحزن والجنون دوما.

صديقي الذي يقول أبي عنه ويريد منعي من الذهاب لبيته كل خميس هو صديقي الوحيد المتبقي بعد الأفكار التي هي بالنسبة للمجتمع مخالفة لكل قيمه ومخيفة.

ليس الإلحاد حدا مجتمعيا مخيفا أكثر من إنتاج السوداوية وتوزيعها، أكثر من التخريب الدلالي للمقدسات، القيم.. إلخ

قد أنهيت ديوانا صوفيا رغم أني لا أظن أني شاعر على الإطلاق وكنت أبحث عن أحد ما يدققه لغويا لي.

هو فقط من يسمع قصائدي ولم نجد الديوان آخر مرة جلسنا يوم الخميس بعدما خرجنا والخميس الذي يليه وجدناه مدقَقًا وهو نفس اليوم الذي قابلني فيه المجنون.

فقده مضحك بالنسبة لي رغم أنه مأساوي.

فقده يشبه التعثر في بعض الطوب على سطح البيت واقتراب وقوعي من الدور االخام، فلم أنتبه ولم أعدِل نفسي بل غرقت في الضحك.

نتناقش عن المجتمع والسلطات واختنقت برؤية الحيطان حولي فقلت له: نخرج نتمشى.

فقلت له ضجرا: كتبت بعض الشعر الصوفي البارحة.
فقال: آه لو أحببت امرأة أكثر من مطلَقك، ستعبُدَك، هات هات الشعر.
فقلت :

كنت في بعضك وكنت في كلي
بعضي ارتدَّ وكلك مشى
فجز لي صلة
حتى لو كره وعدى
لا أقدر كالمجدلينا على رؤية عيني مصلوبة
مع معشوقي الذي انتهى،
ولا كإبليس
أبيح تفصد قلبي لنهايته
على طين لغا.
كرهوني لأني صورتك بلا أنا
ونعتوني مهما تجردت بالانا
اِشْفني مما أدركت منهم
ومن حيثي الذي غبت فيه
مجازي خلقك كما هو
من غامض أكبر بلا حد
ورقة آيل هرب من الهنا.
أعرف أن لغتي ناقصة مهما اكتملت
وأن معنى المعاني نوى
غايتي كلمة في سبحانك

شردت من ندى.

فقال: أصعب شعر ممكن هو الشعر الكلي لأنه يتطلب ذاتا لها قدر كبير من الفلسفة والرؤية الشمولية ليست التفصيلية فقط

فقلت: معك رأيت صوفيّون كثر مستوى الصوفية بالنسبة لهم في الطواف بينما الاقتراب من الله يكون بوجود معان متعالقة معه ومحادثات ووجد ونفي وشك وتأويل.

فقال: لم تجرب أن تدخل مجتمع المثقفين؟

فقلت: المحاولة ليست في بالي، الكتابة فعل وجود بالنسبة لي، أنا خارج طريد، المجتمع، أي مجتمع، لا يريد خارجين عنه، بل مؤمنين بأصنامه أيا كانت هويتها وعاداته وتقاليده وخوفه وتابوهاته.

فقال بابتسام: إن سمعنا أحد سيقتلوننا، ليس لكفر بل لجنون هه.

فقال: نعم فعلا، هيا نصرخ ونجري؟

فقلت: ههه هيا

عدت للبيت قلِقا رغم ضحكنا، لم أكن أستبشر بما هو قادم أبدا، ولم أثق أبدا في صديقي المفاجئ دوما بما لا يتوقع أي أحد.

عدت للبيت وأنا شارد ودخلت غرفتي واستلقيت على السرير وغرقت في النوم سريعا على غير العادة.

سمعت صوت أبي ولكني لم أعره انتباها وسرحت في لاوعيي وعمائي لأحلم بالحلم المتكرر دوما منذ الطفولة وهو شخص ما يسرح شعره في سواد مطلق إلا نور خافت في غرفة جدرانها زجاجية وعليها ضوء أأحم، لم أتبين أبدا من هو ولم أنسَ الحلم ولم يتركني منذ وعيت أني أحلم.

الساعة السابعة مساء ولم أستيقظ إلا السادسة صباحا، على صوت

أبي وهو يقول لي بصوت عال: صديقك المجنون انتحر ودفناه كرما لأبيه بلا غسل أو جنازة وهو يُوارِب الباب.

قمت من السرير مفزوعا حتى وقفت أمامه وقلت له:

أي صديق مجنون؟ ومن الذي انتحر؟

فقال:

ابن شيخي الأكبر الذي علمني، يخرج من جنس الجميل الدنِس.

لم يكن صديقي مريضا بشيء ولم يكن يتناول أية أدوية لكنه كان يطلق في أحايين كثيرة رغبته في الانتحار.

وتناقشنا أكثر من مرة في هذا الأمر وكنت دوما أقول له إن ما هو عليه الآن يمكن أن يتغير، حالته النفسية والذهنية وجداله مع المعنى وإلخ. ولم أكن أحسن منه حالا، كنت أريد أنا أيضا الانتحار.

لكن يوتوباه الذاتية التي كونها وجدانه من خلال الرهافة الشعورية واكتشاف أن الشخصيات تلك التي كانت مصدرا لليوتوبيا أو الآلهة أو ذاته، هي مجرد وهم.

انتحر صديقي من أعلى المئذنة للمسجد الذي كان يُجاوِر بيته والذي هو تبرع من عائلته والذي كان والده هو شيخه إلى أن مات وإمامه.

لم أعرف إلا بعد أن دفنوه، وبعدها لم أخرج من البيت أبدا.

وعرِفت من خلال الشرطة التي جاءت لتخبرني أنه نقل ملكية بيته إليّ بعد أيام وكل ما يملِك.

لم يُخبرني بأي من ذلك أبدا ولم يُنوِّه حتى.

أعطتني الشرطة المفاتيح والعقود ووجدت في وجه أبي استبشارا لا أسى، لم أعِ موته، لم أكن أتصور ذلك.

أفعال المقاومة كثيرة، منها التعبير ومنها الصمت ومنها الانتحار ومنها الإرادة في الحياة.

حق معناي ومعناه الانتحار، عدله الأكبر، حقه البياض الأخير المحرق والكف عن ترك العالم.

نمت وأنا أفكر في صديقي، واستيقظت سكرانا بلون الفجر وسحره وفي داخلي غصة عظيمة من العالم ومن مآلم الحقيقيين.

أدندن للتوني وعلى وعي مباشر بدلالة الازدهار للأفول، ولا يوجد أي عزاء لعدم الانتحار سوى بحة التوني الغادر الذي يحلل وجودي ككل، استيقظت وسط أعماق ربانية للجنون بحبكة مجدِفة قلقِة.

سطعت الشمس بضوء أزرق وأنتجت امبراطورية من جثث الشخوص.

بجواري الديوان، هذه الجثة التى تحيا فيها آلاف الديدان الدلالية المتأججة للخروج لماهية العالم. بجواري فراغات لانهائية متعددة تتضاعف مع نظري لها، عين حزينة تراقبني بؤبؤها فحم مشتعل، قلبي طيع لاستثارة الكراهة جميعها في العالم.

حلمت بمريم العذراء حلمي المتكرر، أنها على جبل عال جدا وأنا عين في الحلم، يخرج من بطنها ضوء رهيب ساطع جدا، وأخرج من بطنها ميتا مرميا من أعلى الجبل.

بكيت بلا قدرة على التنفس وقلت بصوت خفيض "كان ينوي الانتحار لأن العالم لم ينجح أن يستلبه من حقيقته رغم اضطهاده، كان ينوي الانتحار لأن نفسه لم ينجح أن يكون تافها، ولم يقوَ على المقاومة لقوة العالم ولعدم جدوى المقاومة له وللعالم في شيء.

وحملت نفسي إلى بيته، ماشيا ببطء ورأسي سينفجر من الصداع الرهيب، دخلت إلى الغرفة التي كنا نجلس فيها ووجدت على المنضدة ورقة، لم أعرف أن له وداعا أو رغبة فيه، حتى عندما يخرج من عندي أو نفترق يمشي مباشرة ولا يقول شيئا.

"أظن أن عقاب العالم الأقصى والأقسى لم يكن النبذ ولا الوحدة المُهداة ولا الجنون ولا الرغبة في الانتحار بل كان تفاهته نفسه وعبثه".

كنت أريد أن أقول حنانيك يا "__" ولم أجد قيمة في قلبي تناجى وتُفرَد لها المناداة وتُغرد لها وربما هذا من مأساوية الإنسان ألا يجد من يغرد له.

كنّا سنصبح قاتلَين لولا الكتابة والانتحار، ولكننا بالكتابة أصبحنا مجرمَين في داخلينا.

أنت تعلم أن هناك فروقا بين الشخصيات في الإدراك على حسب التجارب، ولكن التجارب التي تعمق الحدس دوما هي التجارب بالقرب من الموت إما بتجارب الانتحار أو تجارب الفقد أو أنواع الموت الوجودية من الفراق.. ولقد فقدت ذاتي قبل أن أنتحر.

رغم مأساويتي، وأنا أفكر في الانتحار دوما أرى أرض برتقال صفراء مغلوبة من صمت عميق.

ربما أذهب لها الآن، أتمنى أن لا تتذكرني أبدا وأعرف أنك لن تفعل وأني لن أفعل لو كان الأمر متعاكسا".

اللهم حبكة حياتي انعدمت فلا تزين أي حبكة أخرى

اللهم عيشي حجاب لي

وكفري بكل شيء حقك

اللهم إن مؤمنيك زائفون

لم يحترموا حرمة قلبي وقلبك
اللهم يا متولي الوحيدين في الباطن
اغلب ملكك في وحررني
لا أحب شيئا في العالم
اللهم أعلم أن انتحاري قادم لامحالة
وأن الأمل فيك ليس من حقي
لكن عزيني بالألم أو الشهود
غلبني قلبي فنأيت
والوحدة لم تعد تسع صراخي
اللهم إن ضعفي أقوى من قوة العالم
لكني لا أريد المقاومة
اللهم لا تعذرني إن جرت على قلبي
وحاكمني بما لا أطيق
اللهم اجعلني أدركك مهما فنيت
ولا تجعلني أرغب في العالم مهما تزين
اللهم إني وحدي ولا أريد جوارا
اللهم وَفِّنِي لعنتي كاملة
وعجل فتقي على الصلبان الذاهلة
اللهم إني أصدق كل ألمي
ولا أصدق غيره
فلا تجرحني فيه
ولا في الظلمة
التي سترت المدامع السيارة منذ بدئها.

اللهم ربي اكفني من الزهد
بما لا أحتاج فيه ما ليس من ملكك
وما لا أجور به على المحتاج
اللهم العالم فقير دوما
لمشكاتك القادرة
مهما تنطع في السحب العالية
المعنى يحوجك.
اللهم أقلبي باطل؟
والخوف حقيقته الخالية؟
اللهم خلا كل شيء في عيني ومن عيني
إلا جثتي بين التراب والسماء الشاعرة
اللهم إني لم ألتقِ بعد
من أحبك لذاتك
وترك وجوده إلا المتصوفة
اللهم جحري يضيق
وصدري ندرت فيه النسمات
ولكني ما زلت أظن قدومك
في القصيدة التالية.
كانت روحي طوافة بلا حيرة
في أكفان الموجود والمجرد
حتى اختبرت الألم

***

(16)

برية روحي تظهر في المضاجع البيضاء وفي نهاية القصائد وحبكة النظرة للسماء الملونة. نظرتي الحادة المغرقة في الهتك المباشر لأي دال على استباحة لحزين أو هالك.

صنوف البرية كثيرة رؤية الدم في بعض الكلمات عند كتابتها وعدم الاهتزاز أو الخوف والمشي المتطرف في أخيلة لا تُعرَف.

ومن هذه الصنوف خلق الشخصيات بعد الوحدة التامة.

أخلق كل يوم شخصية وأسميها اسما ونتساءل معا، نتسامر، نتشاجر. نتحقق باللغة ونضيع ذواتنا باللغة وبدأت بأنثى أسميتها "void" بمعنى فوضى، لا أعلم ما حاجتي للغة، للحوارية والمحادثة، حاجتي لممارسة اللغة مع آخر؟

إنها أفعال الوحدة، طقوس زمنية مع كل وعي فيها، حيث الشكل جثمان طيع، أي شكل والتنوير لمساحات المتخَيل لانهائي.

الرموز كاملة الدلالة في خواتم الأنهر والليالي.

لا أعلم هل كل هذا لمداراة المرأة الوحيدة التي أحببتها بمفهومي عن الحب وكنت أحاول إيجادها في كل امرأة عرفتها.

كانت الصلة التي جعلتني أتعارف على الكثير من الأشخاص هي الشعر، ولكن بقى من كان سبب تعارفنا الحزن والجنون دوم،. وهي الوحيدة التي عرفتها للشعر والجنون والحزن معا، هي فقط.

شفتانا التي تعانقت، وحِرزانا من الألم المتصوف يوما، على أغنية "يا بحرية" لمارسيل خليفة، الآن سدرة تسافر في هاجسي طوال الوقت والجندول المتسرب من لماك عكرته الأيام، الخروج حق نأيي وكفي بترا من النبش. جديبا الآن وجدبة الأشياء والأماكن والشخصيات التي أأكونه، لا أستطيع مراسلتك ولا قذف رياحي إلا للورق، أتشهى عناقنا ودخولك للحمي وسرديات نفسي، عينك الصغرى وكفك الصغرى، أشقاني كل شيء وأشقيت كل شيء حتى سندسيتي. حقي العادل الذهاب أو الاعتزال نهائيا والسفر بلا عودة إلى أي أحد أذيته، ليس جلدا للذات لأني انسلخت إلى سوط لكن هذا لا يريحني وأحد آخر ينطق من لساني بأي لغة أيا كانت أقولها، لم أعد أريد قول أي شيء، لم أعد أريد الحكي، أي مشرط حولي سيفي بالغرض بلا دموع وبلا خوف.

لم تكن تحب أن أُزخرف خاصرتها ببقايا الألوان على يدي من محاولة التجريد اللوني، كانت تكره سرتها وتكره أي نظرة لها أو التعبير عنها وتحب أن أسند العود الرخيص الذي بعته بعد ذلك لأشتري الكتب على نهدها الثقيل، هكذا كانت تقول" أرخه لدلال عشتار"، ورحلت أو رحلت أنا كعادة مزمنة، هي هجر المضاجع وعدم مشاركة أي ليلة في سرير واحد مع أي امرأة، هي المرأة الوحيدة التي استمررت في محبة نَفَسَها، رغم كرهي للأنفَاس كثيرا وعدم احتمالي أي اقتراب، سلاما يا غائبة ورحمة من نهدكِ.

في الخراب الأخير الذي لا يعقبه أي عمران، أنا الدم الأسود لكل المُراق، الذي كان يستبطنه.. الموسيقى التي تنشي بلا لغة، الإبداع الموجود في حركة كل شيء، الإبداع الصافي الذي لا يوجد فيه رسل لغوية أو لونية.

هو أكثر إبداع فني يثير فيّ حركة شعورية ومعنائية ووجدانية ربما

لأنه هو المُدرِك الوحيد في العماء أو في النور. هي أحيانا حفّار لكل المدفون وما لا تطاله اللغة وخصوصا المجهول.

أحيانا تكون موحية بالمطلق، على حسب التصور الشخصي للمطلق، وحي اللغة معين، ووحي الموسيقى مطلق.

لذلك الموسيقى ليست عنصرية لأنها لا تطالها إلى درجة كبيرة الأنا.

بعد فترة كبيرة من اليأس والانعدام تأتي مقطوعة موسيقية تغير كل شيء وخصوصا الأوبرائية منها لأن اللغة لا تشوه فيها الموسيقى وأيضا التخيلات المستوحاة منها لا تحتملها الأوراق.

هناك قصائد كثيرة ودواوين كتبتها من وحي الموسيقى في رأسي وكانت أقرب من كل مكتوبي، دوما الطيفي أقرب لي.

لو حددت الوحيانيات التي جاءت لي من الموسيقى مهما كان نوعها لن أنتهي لكن هناك أغنية لمارسيل خليفة، يا بحرية، أسمعها كل يوم ووحيها دوما مختلف، أسمعها لأحضِر الحدث الأجمل في حياتي معها.

تبدأ بعلو موسيقى وبعد ذلك تبدأ في التدرج والانحدار النغمي وبعدها تعلو ثانية لكن بين العلو الأول والعلو الثاني هناك مشادات كثيرة كأنها مشادات للتكون.

وأنا أسمعها كل يوم يأتي تخيل أن هناك شخصا يرقص في فضاء ما، وشكله غائب مجرد وبين العلوين يدفن نفسه بنفسه وبعد ذلك في العلو الثاني يقوم ببطء وينفض التراب، والتراب أيضا يكون له شكل غريب.

الكلمات والموسيقى مناسب، " شدوا" الدلالة اللفظية للكلمة، شكل من أشكال الحصر وبعد ذلك يقول "حرية"، يحصر الشكل التكويني للإنسان وبعد ذلك يطلقه، وأشعر من ذلك أنه لا توجد حرية لكل

شيء، يجب أن تعين وجودك، تعين ذاتك لكي تتحرر وتدرك كل هذا.

كارل جوستاف يونغ كان لديه نظرية في علم النفس تسمى النماذج الأصلية، هناك سمات للاوعي موجودة في كل الثقافات فمثلا في الحضارة المصرية القديمة هناك إله لمفهوم ما، تجد في الحضارة اليونانية أو غيرها إله لنفس المفهوم لكن باسم آخر ومقارب جدا للتصور هذا.

أحس أن المنشيات الموسيقية أيضا نماذج أصلية، وهذا مثلا في مقطوعة موسيقية لكلنت مانسل، ومقطوعات أخرى، يعلو ينخفض ويعلو ثانية، وهناك تفاصيل في العلو على حسب الآلات الموسيقية وتفاصيل في الانحدار ونغمة الانحدار.

العلو الأول علو مفاجئ، الموسيقى هي أكثر شيء ينسخ الشكل التكويني للعالم والإنسان، العلو هذا العدم أو الأزل وبعد ذلك يتكون الإله أو الإنسان وبعد ذلك ينعدم.. العلو الأول كان مفاجئا في الأغنية يا بحرية، العلو الثاني عبور نحو هدوء، لكنه هدوء في تاريخه ثورات كثيرة في المخيال لدي.

صوت مارسيل خليفة أقرب إلى صوت الموسيقى نفسها، يعنى الكلمات مهما شوهت صوته يحتفظ بشكل من أشكال الصفاء النغمي التام، صوت أوبرائي جدا، تشوهه اللغة فهو ما يفيد الكلمة، يغنيها، يصفيها من الشكل البشري، صوت دلالة، صوت مجهول، صوت يستنفر مثلما تفعل الموسيقى في داخلي، ليست في مساحة الكلمات التي يقولها يكون ذهنيا، بل في مساحة دلالات الموسيقى، هناك أصوات مقاربة منها صباح فخري وعبد الوهاب.

***

(17)

ممكن أسأل سؤال..؟ هل تلذذت بعذاب أحد من قبل؟

: هه لا يا void، لست ساديا بالمعنى ولا مازوخيّا، لكنني أحاول أن أفهمهما بدلا عن التصنيف.

كيف ستفهم شيء لم تعشه من قبل؟

: أحاول فقط.

أظن أنه ستتكون عندك فكرة عن هذا الأمر فقط وليس فهمه بالمعنى الحرفي.

وحتى إن جربت ستكون فكرة، ليست معنى حرفيا إلا إل، اتسعت الأفكار والمشاعر حتى ضاعت حرفية الاشياء.

- مشاعر..؟

: نعم، غامض وهرمونات.

غامض من أي ناحية، هل تقصد التناقضات التي تسببها أحاسيسك وأفكارك مثلا؟

: يعني غير معلوم لقلة الإدراك والوسائل.

كنوع من البرود..؟

: نعم

هل يخلق لك هذا الأمر مشكل أم أنك تجده عاديا؟

: ماذا؟

يخلق مشاكل.

: لكن أنا أصبحت أتجاوب مع كل شيء على أنه لعبة.

و ما هي نهاية هذه اللعبة..؟

: لا شيء معروف إن لم تلعبي، وطوال الوقت تتغير الدوائر.

لعبتك أنت من تضع القوانين فكيف لك ألا تعرف نهايتها.

: لا أقصد لُعبتي، لُعبتي إن كان العالم لا يوجد فيه غيري، بل كل شيء لعبة، آن عال ضخم.

يعني أنك تجاري العالم فقط و تعتبر هذا الأمر لعبة صح.

: هه أَضْحَكْتِنِي، أجاري ماذا void؟ خصائص اللعبة الفوضى، ألا تعرفين حياتي كيف تسير؟ لو كنت أجاري كنت انمسخت، عارضت كل ما شئت وحملت الألم والعقاب مهما كان ليس نظريا.

بالطبع لا أعرف، أنا فقط أكون فكرة عنك.

: اتركي مساحة فقط لا تملئيها، لا يمكن أن تخرج الكلمات هذه كلها من مُجارِ.

جدي منفتحا، متعاطفا متجاهلا، هادئا وعاطفيا وفوضويا في نفس الوقت، سريع البديهة ويتقبل الانتقاد ولديه قابلية لتبني أفكار جديدة مهما كانت.

: جميل، لا أستطيع فعلا أن أصف نفسي بأي شيء.

لماذا؟

: لا أعلم فعلا، لكن الوصف سمر مع وهم، لا وصف لأنه لا جوهر أقيس عليه، سائل طوال الوقت، لكني لا أكبت أي شيء حتى لو كان تدمير العالم كله ولو لي قدرة على ذلك.

هممم نظرة مثيرة للاهتمام.

: لا تستطيع وصف ذاتك لكن ماذا عن غيرك..؟

ولا حتى غيري، الوصف حتى لو فعلته لعبة تلبيس، الآخر من شخوص روايتي، وأنا من شخوص روايات الآخرين، خلق في خلق.

حتى لو خلق بلا معنى، ممكن فعلا فويد، أترك العالم لو كانت القيامة الموهومة لأني أريد أن أقص أظافري.

يا فويد لم أقل أ أنني لا أصف، لأنني أتحدث، لكني لا أؤمن بالوصف فقط.

اللغة الحرفية لا تعبر بالنسبة لي عن شيء، وإن لم تكن مجازا فيجب أن تكون متحركة، لهذا أتحدث شعرا دوما لأني العدم في شذرة والوجود في شذرة في نفس القصيدة، بالفعل يقوم العالم على الشعر ليس الشكل التافه الذي يصدّرونه بالرقة واليوتوبيا.. والخ

هممم فهمت قصدك. هل تلعب المبادئ دورا مهما في الحياة بالنسبة لك؟

: إلى حد ما في التعامل مع الاخر، لأن هذا ليس من حقي أن أؤذيه أو أنشيه أما داخلي ممكن أفعل أي شيء.

لماذا تعطي قيمة لآخر..؟

: لأنه فاعل في، فاعل في نشوئي وتنحيته غير منطقية، حتى الكتب لآخرين.

من قال شيئا عن تنحيته؟

: النطفة والسائل.

هل تهتم لما يشعر به غيرك..؟

: اللغة الدلالة، نعم أهتم جدا.

لماذا؟

: لكن ليس ناحيتي.

: رأيت أحدا يتألم في المقهى ودمعت، لأنني لا أقيس الناس علي، هو يتألم فعلا، وأفكاري لا تذهب له شعوره، شكل من أشكال الزهر المتبقي، الزهر يفوح بلا إرادة منه، ينشي ويجمل، كيان الرائحة.

لا أفهم هذه الأشياء.

: لا أحب الزهور ولا الروائح إلا روائح معينة وأغلبها النتنة لكن التشبيه لقلة التعيين، لا يوجد عموم لدي فويد وهنا الأمر أنني لا أكبت أي شيء حتى وإن كان مخالفا لي.

أنت حقاً مثير للاهتمام.

: الآخر دوما تنجبه عينك وأنت تنجبك لغتك، سأحاول النوم أخذت المنوم وشربت بعض الويسكي.

ما سبب شربك الويسكي..؟

: فقط يصيبني بأكثر شيء مفكك، عقلي صارم جدا، أحننه فقط به.

وهل الصرامة شيء سيئ. ..؟

: لا لكن ليس طوال الوقت، لا يؤثر في شيء إلا بعد جرعة كبيرة جدا بسبب المهدئات التي أخذتها، لا يوجد إلا الهيروين.

هل تحاول تخدير ألم في داخلك أم تحاول تخدير نفسك بصفة عامة..؟

: لا يتخدر شيء لا ألمي ولا أنا، لا انتشي لكن أغير فقط وعيي، بدلا أن أرى الحيطان ثابتة أراها مهتزة، الألم ترسب والعالم دُهن.

تحدث معي في أي شيء تريده أنا معك.

: مم، لا شيء يكتمل في ولا بي ولا نص، لا أشعر بنهاية شيء، كل شيء ينقصه شيء، ينقصه هو.

النهاية هي الموت.

: الموت نقطة متحركة، لا أشعر أنني حي مثل الناس حولي، ليس الأمر وعي والخ.

همم مثل الفراغ.

: دائرة والمدار جامع للعبث، ألاحظ دوما بكِ وبي وبأي أحد، أن الكلمات النهائية التي تعتمد عليها الجمل عبثية، الفراغ مكان، الأمر تعرفي الملأ والاستفراغ، أنا أملأ ذاتي وأستفرغها. أنا _ ليست حية بي، لا أشعر أن الذات ذات.

مهما ملأت في ذاتك فسيظل الأمر مزيفا وستعود لنقطة اللا شيء مرة أخرى.

: ليس الأمر زيف، العدم أول وآخر، هذا بديهي بالنسبة لي، كما قلت لك لعبة الخلق والتدمير، كان عدما ودهنته بفعل تلو فعل، كشطته فعلا تلو فعل، ليس ذلك ما أقصد، بل إن هناك حدودا للعقل، مكرسة صلبة.

أشعر أحيانا بجزء من رأسي يعمل فقط والباقي لا فعليا، الآن أعلى جبهتي لا أشعر بجسدي نهائيا أحيانا بدون أي مخدر، أنسى اللغة والحركة.

هذه هي الاضطرابات التي تحدثت عنها سابقا..؟

: نعم.

ماذا أخبرك الدكتور النفسي..؟

: العادي اكتئاب حاد، وقال لي لا أعرف فعلا هذه أول مرة يمر علي

هكذا حالة وأنا لم أخبره إلا القليل.

هممم هل حاولت الانتحار من قبل؟

: نعم.

كم من مرة؟

: ثلاث

لهفتك للموت لم تكن قوية للغاية.

: لا، شرطت كل عرق في، دهورا بلا أي ظهور لشيء كانت الأرض.

فويد، والطُعم كان مللا لخلايا،

هممم فقدت الرغبة في الموت أم فقط استسلمت للحياة ام أعدت بناء أمل لنفسك...؟

:لا ليس الثلاثة، لم أشعر برغبة فقط في شرط عنقي، إن في أي وقت شعرت سأفعلها، ليس لدي خوف أالأرض، لم يجُل الأمر فقط.

أنا دوما في هاجسي لغة رغم أنني اليوم لم أحرك لساني إلا بضع كلمات. اللسان عضو مذهل، شص لعدم، جبل في فمي.

وسيلة مذهلة.

: قست الحيطان بالزلفى وقست الأجنحة بالهروب، لساني مربوط بالتاريخ كله، يجره سيزيفي.

ما هي نقطة التحول في حياتك ما هي اللحظة التي غيرتك وصرت ما أنت عليه اليوم؟

: رأفة يا هناك، رأفة يا هنا الوحدة.

مأساة أم فقط فكرة؟

: منذ الطفولة وأنا هكذا لكن لم يتضخم الأمر مثل الان، حدثت

مآس كثيرة لكني الاحظ الرد ذلك دوما. مهما كانت المأساة أليس ما نحياه حقيقيا ومنطقيا وعادلا؟ المأساة تجربة ليست عوارا أو علة.

هل هي حقا مأساة أم أنك أنت من جعلتها مأساة؟

: تؤخذ الكآبة على أنها عوار مرضي.

هذا ما كنت سأخبركِ به.

: سأكون بهذا العقل وأزيف الجمالية المأساوية، لا شيء يغتذي من عدم، المأساة تنشيط، الخوارج فلول داخل.

غالبا ما ينظر للمأساة على أنها شيء حزين لكني أعتبرها فقط نقطة تحول وبداية تكون ماهية جديدة، المأساة تجربة وانطلاقة سواء سلبية أم إيجابية وفقاً للمعايير التي يفرضها المجتمع، وفي النهاية لكل شخص لغة محددة والتي يترجم بها مأساته.

(صمت وصمت وصمت لا يسلبه شيء حتى لو تكلمنا).

أرأيت هذه اللحظة كيف هي في الزمن؟

أحيانا إذا كنت أتالم أقسو على نفسي أكثر لئلا أشعر بالوهن.

: هي لحظاتي كلها .

أمسك الجمرة.

: لا أشعر بشيء لا جمر، هذه هي المشكلة لا شيء ينشي لا شيء يؤلم، تحجرت.

لأنك متجرد، أعتقد.

: ربما، لم أعد ا أبحثبحث عن أسباب، لا يهم.

لكنك مصر على استخدام عقلك.

: سأنهي الرواية التي أكتبها.

لما لا تنظر فقط؟

: وأذهب للمصحة.

كيف تستسيغ هكذا فعل، اذهب لرفيق أفضل من مصحة.

: عزلة تامة، لا يوجد رفاق، لا أطيق أحدا.

حيوان، ليس شرطا بشرا، كلبا أو قطة.

: لا يوجد فعلا، ربما أقتله، لا ينفع في جواري شيء، لا أحد يقدر على مجاراتي.

ألا تشعر بالأسف ؟

: سيغمى عليه، لو أخبرته خمس دقائق من زمن رأسي.

لا لم؟

آسف، يعني هذا جيد على الأقل لا يكسرك.

: لدي قدرة على إيلام أي أحد كنت أحبه، إن اقترب مني.

الشعور بالأسف أشد وطئا.

: بدون شفقة ولا رحمة، ولا ألم حتى ولو قليلا لي.

ليست لديك معايير ولا قيم ولا تريد أن تخضع.

كيف تعيش؟ أشعر أنني محتاج أن أخضع لأي شيء.

الانفلات من كل شيء يقود إلى أين؟

: لهذا أحيا في وحدة، لكي لا أدمر أحدا، لكي لا يكون احتمال أن أدمر لأني لن أتوانى.

جرب أن تقول نعم.

: لا أستطيع، ليست موجودة.

ما ممحاتك؟

: الطاعة وهم للمتجرد.

حقا شيء يحيّر.

: كل شيء، أنا أثيره أثير نفيه، وهو يأكل نفسه، العالم هش أكثر مما تعتقد، الأشخاص، الآلهة.

ترى كل شيء محكوم ب(ليس)؟

: كل شيء محكوم بنفيه، حتى ال. أول الله، وال لا.

لا شيء يتداعى لأنه لا شيء مرصوص.

: لا، سيتداعى يُرممون الخراب بالخلق، لا أعلم لم كل هذا التأويل لعدم.

لعدم؟

: عدم هو الله هو المطلق، أي ألا يملك هذا المخلوق لعدم أي رصانة، هم احتمالات لبعض.

أنت تمشي في الشارع وفي الدهاليز وتشعر أنك تمشي في بياض.

هل رأيت ذلك؟

: كثيرا، أنا لا أمشي، لا أحتاج حتى، لن تدمره إلا بتدمير نفسك، لا توجد أشياء تتدمر إلا كاملة، أنا منهم.

وهو أليس كاملا؟

: السر، الله الغيب المجهول أنت، أنا هم هو هي، السر غوامض لعدم واضح، الصمت، اللغة، الكل، كل الكلمات هو، نحن اللغة، اللغة مني خالصة لي، لا تعبر لا تقول، اللغة صامتة دوما، فضلة فقط.

أذكر أنك مرة قلت إنك ظللت صامتا لمدة عامين أو أكثر أو أقل.

: الأمر أنني أتحدث برأسي، أريد أن لا يكون في هاجسي لغة.

جربت هذا، ذلك الصمت، عند كون عيونك فقط هي ما يتحرك

كم هو جميل؟

: تعرفين أنا لو لم أكن أكتب، لقتلت كل من رأيته، بلا أي خوف أو ذنب، هذه الأيام أنا مسعور، مسعور غامضي.

أنت غير متعلق لما لا تذهب؟ تجول في الأرض مشيا.

: كلها نقطة، كل شيء منسوخ من نقطة، عميت عنها المحاة الأولى.

ههه جميل، عميت عنها المحاة الأولى.

: نعم: و "نعم" مجتزئة من ضدِّيَّتي، أبتعد عن عيون الناس، ممكن أن يهربوا إن رأوا عينَيّ. عليت الأمر جدا، أُستنزف كل شيء، أشرب بجنون والهيروين والحشيش والبانجو، كل شيء، يجب أن أنهي هذا الخراب قريبا وأذهب لمصحة وانتحر ههنا، لا أريد أن يحملني أو يراني أحد.

يا أخي غنِّ، جرِّب، حاول أن تغنّي

: لا شيء يجدي، أنا أجلس، أتجرد إلى نقطة فعليا، تخيلي نقطة... وكل الخارج نقطة.

أتخيل، كل ما تقول، أحجبة مسدَلة بخوف فقط كل شيء، لكلماتك غصّات وحسرات واختناق ولعب ومرح وموت وحياة، أولي لما تقول اهتماما بصدق. طيب لما تثور ضد رؤياك ؟ ضد جهاتك كلها التي تحبها والتي لا؟

: السؤال ليس هذا.

أن تكون باقرا لكل ما رافقك.

: السؤال لم هناك أبعاد لها؟

لأنك دائم في الآن.

: ولم لا أذهب فيه؟

وفي الآتى.

: الخوف لا أخاف ليس الموت، الموت عبدي، متى تشاء أحضره.

أما سئمت يوما من أنك تفهم ما تقول؟ تفهم هذا مثلا.

: سيكون العالم مثلي لكن الوقت فقط، أنا سبقته للخراب، لاكتشافه.

: لا أعرف ما هذه القدرة، أرى النور في حلمي لكني تخيلي أنهش في جلدي وأسوده، لا أريده، لهذا أن يحدث فعليا، أقطع جلدي بأظافري، وعندما تتكسر اعض جسدي لكي لا أراه، هو يستخدمني فقط لكني باطنه.

أنا حلمت أنني مشلول ومطروح وأحاول أن أستجدى وأستغيث ولا أستطيع الحلم هذا خوّفَني منذ يومين.

تعرف معناه؟

: ربما لا أحد حولك يطمئنك

الرغبة في التلاشي نفسها التي تحدثت عنها سابقا؟

: والشلل والاستغاثة لعدم وجود أي معين، لكن السؤال لم تستغيث؟

أنا لا أخاف في الحلم حتى.

أنا خفت كان الوقت ليلا وأنا مطروح في شارع ولا أستطيع الحركة والكلام لا يخرج من فمي، أولته أنني عاجز.

: اللغة فعل عجز، النداء، الاستعانة، الاستغاثة، مثلما أكتب لأنها كلها مجاز.

الحكاية المجازية تروي حكاية فشل التفسير، قالها ناقد.

: اللغة كلها مجاز الأنا تريد أن تُفسِر، لم فشل التفسير؟ ولم فشَل التفسير يجعله يؤول؟

لا أعلم! حقا لم ومن قال إن التفسير فشل؟

لأنه لا يريد أن ينظر بنسبية؟

: التفسير تأويل لمعطيات واضحة، لكن هكذا أنا حر.

لم نسبية؟

: في المجاز، أنت حر ناقص، لأنك بلا قدرة، أنت مادة وغامض، المادة مقيدة، مهما تحررت في غامضك أنت مقيد. ومجاز، إن تحررت مادة، ماذا ستفعل؟ كل ما لا تفعله مجازيا، وبعد ذلك، أنت لا تحتاج الغامض، لأنك تفعله، الشمس أنا، ستكون أنت الشمس.

نعم.

: اللغة منحوتة من حسي أولا.

نعم.

: وبعد ذلك تطورت.

صحيح.

:هل ينتحر البدائي؟ لأنه بلا لغة، الأمر في أي عالم تريد أن تعيش؟

يقتل إنما لا ينتحر، الانتحار رغبة لغوية. اللغة لها أساس كبير جدا، هي بُنيت على خراب والآن فيّ خرّبت الموهوم العمراني لأن التاريخ رص مجازات عاجزة. اللغة ممكن تنقلك لزمن، وممكن تحييك في أبد وممكن تدمر الآن، وممكن تخلق زمنك، ليته لم يُحرِف صمته إلى ممكن، ممكن مجرور على مستحيل.

أنت قلت ما يلزمني السكوت.

***

(18)

أعتقد أنني لن أعشق ثانية بعد هذا الطيف الأنثوي الذي انتحر، وتزامنت كآبتي مع انسحاب الأنثوي سواء كأمومة أو كمعشوق.

أدخن بشره هذه الأيام ثلاثة علب ولا أنام، الهلاوس الجميلة والبشعة تشتد.

لا أعرف ما أهمية هذا الدمار الذي أفعله بنفسي في تعزيتي؟ كانت السجائر السادة دوما لأني لم أعد أتذوق شيئا، ربما بشكل لاواعي هذا الدخان ارتبط لدي بالدمار والنهاية كون أي شيء يحترق له دخان، ونهاية الدخان انتهاؤه أو انتهاء جنس كيانه الحالي.

منذ الطفولة أحب حرق الأشياء التي تمثل لي قيمة، أحب الوقوف أمام اللهب وتأمله.

خرجت وحيدا بعد أسبوعين من المكوث في البيت وعدم الحديث مع أي أحد على الإطلاق، لا أعرف ما هو شكلي حتى، كسرت المرايا جميعها في الغرفة، كنت أظن المرايا أحيانا تبيع شكلا تجاريا للظاهر لا شكلا حقيقيا.

أنا رجل وحيد، متعب، مرهق، مليء بأشكال الجاذبية للمتألمين، أحيا في رأسي، لا ألتفت لما حولي كثيرا أغلب الأحيان، أركز وأدقق في تفاصيل بسيطة، أشكال شاعرية دوما ليدي في البدء على أذني عندما أضيق بأي صوت يعطل صمتي، رمزيات دلالية أراها للأنثى التي

تظهر أنها غنجة حيوية، الأرض، المعنى، حتى في نظراتي، كمية نظراتي لأي أنثى ونحن نتحدث أو لا تفوق نسبة نظراتها لي مباشرة، كدلالة على انشغالي برأسي بدون أن أعي.

أحب أن أراقب نفسي والكثير الكثير قال إنني لا أكون موجودا معهم طوال الوقت، رغم وجودي الفيزيائي.

العيون الدامعة مظهر لوجودي، التقزم على المكان والنظرة الحنونة لأي كان يحوي نشوتي التي اختفت.

أفعال وحدة كل أفعالي، ميل الرأس، الهدوء والانفجار بعدها، التحدث القليل المأساوي، المشي ببطء بشكل من الرعب للآخر، عالم وحدة كاملة.

الشرود في الحديث وعدم النظر في العين كثيرا وعند النظر يكون الصمت.

أحب العبث الذي يجر شخصيتين مختلفتين تماما إلى مكان واحد، ليس لهما متن أو ذاكرة فيه.

كان الجنس الذي أمارسه منذ زمن طويل هادئ لكنه الآن اتخذ شكلا عنيفا وأصبح للتعبير عن هروب وتوق للشعور بنشوة لا يمكن أن يشك فيها وهي نشوة الجسد.

العنف من دلالة الوحدة ربما سببا للعنف وله أسباب كون أن أتعالق مع الآخر أي إثبات لشراكة وأنا وحيد وهذا ربما ينبذ هذه الشراكة داخلي. العنف الذي أمارسه بعد أول مشهد في وجودي وهو البكاء امتد طويلا والنوم بشكل مختلف عن حالة الانطواء في البطن الأولى إلى البطن الثانية.

هبوطي المتكرر من اللغة والابتسام لكن ليس دلالة سعادة أو فرح.

طريقة تقبيلي ظاهرة فيها عدم الرغبة ولكن الالتواء والدفع للمشاعر لهذا الوحيد.

ليس الموضوع هو الجنس نفسه بالنسبة لي أو أن الجنس مهما اكتسى على مر التاريخ الشكل الحيواني إلا أن أصوله أو نسبة كبيرة منه نوازع نفسية ويتجلى ذلك في عدم الجنس السائد في العنف.

غواية الوحيد الذي لا يمكن الدخول لعالمه فَيُتَاق لمسه ويتاق أن يرغب فيه.

الوحيد عنيف للدفع، لسماع الصمت، لا يريد حركة الداخل التي تعطل حركة داخله.

الوحيد لا يريد أي تعيين باسم في هذه العلاقة التي مع ذاتي والثقة في اللغة تنتهي، حتى الأشخاص الذين أحبهم لا أسميهم.

أو لأني هارِب من أن كل شيء فعلا غير معين معاندة أني أمارس الآن مع أخرى.

ثانيا لأنني لا أريد تسمية أخرى، أي امرأة أخرى غيرها التي كانت تتغانج في الألوان مع الفجر.

لا أحب التسمية أكثر من المجازات المفتوحة.

وقفت أمام بعض الزجاج المغبش الذي يمثل واجهة المحلات. كان هناك تناص يظهر وجها منسلخ، احتمالات وجهها التجريدي، كنت أكتشف وجود عالمي في العالم.

خرجت ليرميني العبث في أي شيء، بهوية مختلفة ربما أو بهوية متلاشية، ذهبت لشراء السجائر من محل صغير.

سيدة تلبس دبلة ذهبية، أي متزوجة وبنتها تلعب حول المكان ونادتها بأمي، طلبت منها علبة سجائر وكانت هذه أول كلمات تخرج من أسبوعين من فمي.

عيناي ملتهبة بالشر والهتك، وربما اختفت هذه البراءة النسبية في وجهي من أثر التعب.

ظلت تنظر لي بانتهاك جنسي، ترفع عينها وتغمسها في عيني، استدعاء ربما وهي تعطيني علبة السجائر لمست يدي وغرست بظفرها في جلدي.

نظرت لها هذه المرة بقدرة على التعرية وقلت لها: أين آتيكِ؟

قالت: هكذا فهمت، وضحكت ضحكة غنجة، وقالت: في الشارع الآخر هناك جراج أسكن فيه مع زوجي، هو في العمل، سأغلق وأنتظرك هناك بعد نصف ساعة فقط حاول أن تدعي شيئا إن قال لك أحد شيئا وأنت تدخل مثلا.

فقاطعتها: لا تهتمي سأدير الأمر أنا.

لم يكن الأمر لا أخلاقيا بالنسبة لي ولم يكن يُعيقني زواجها أم لا، هل الخيانة مرتبطة بالزواج؟ ومرتبطة بالجسد خصوصا؟ هو شكل من أشكال الملكية المزعومة.

هي ممكن أن تحب أحدا، وممكن أن تكلم أحدا وتدلق له باطنها لكن ذلك لا يعتبر خيانة، أشكال مختلفة من السلطوية.

هل يمكن أن يكون ملك شخص بإرادته لمدة طويلة من الزمن لمجرد ورقة وحيز اجتماعي؟ كانت هذه إن أفردتها لأي أحدا ستكون أبلسة مخفية.

لم أكن أفكر في ذلك أكثر من خمس دقائق وبعدها غبت في الجلوس على الرصيف مع هلاوسي وشخوصي.

كنت أشعر بعيون كثيرة في تاريخي في النظر في عيون النساء أن بعضهن تشتهي بنظرة عابرة، كما كنت أفعل وكما كانت تسرد لي جارتنا الشبقة.

أنها ممكن أن تشتهي عابر لمجرد نظرته وتكوين نظرته في عينها وهناك من لم يكن يشتهي إلا بعد الاشتهاء العقلي والشعوري، ليس الأمر معيارا عاما.

كنت شبقا منذ طفولتي وأثرت أول مرة مارست فيها على ذائقتي الجنسية، لم أكن أشتهي بشكل عام إلا السمراوات من تجاوزوا الثلاثين.

تذكرت أبي الذي كان يلح من شهور أن يزوجني ولكنه الآن يتوقع فسادي، وأني زان ملعون، شبقا لا أكتفي من الجنس أبدا، لا أعرف هل كان ذلك لرغبة نفسية فقط أم جسدية فقط أم كليهما؟

أن أحب، وأن تفسد تصوراتي السوداوية عني؟

أن أشعر بفاعلية وشراكة لو حتى بهذا الشكل فقط لا العاطفي.

لم تكن تُذهب العاطفة أي شبق لدي، لم تكن تتعارض معه في داخلي.

لكن المدرَك والمدرِك الذي يُشع من كل شيء أن هذا الشكل شكل مرضي.

انتهى وقت التخريب الذاتي وحان وقت تخريب العالم بشر صاف مستمد من التعالي.

***

(19)

لا أدين لأحد إلا بالخراب وبعض المحبة غير المستحقة والكثير من الانفجارات.

لطالما شعرت بأني أدين لكل شيء بعزاء، لكنني الآن لست مهتما، مهما تحول قعري لوحل بائس. كنت أحب مراقبة الآخرين، وإسعادهم بما لا يعرفون أنه مني، لكن هذا الشكل السوطي على شعوري انتهى.

الزواج ليس رباطا، الحياة نفسها ليست رباطا، الجميع مستباح بلا تفكير، كنت أريد الانتحار قبل الوصول لهذه النقطة لكن لنجرب كما جربت الآلهة فينا والمادة والآخرون.

دخلت الى الجراج لم يكن هناك من أحد وكانوا يعيشون في مكان مقرف بالنسبة لأي أحد، حميمي بالنسبة لي، لأنه مليء بالخراب والزيوت والقمامة.

نظرت وقالت: لا تستغرب، هكذا هي حياتنا من سنوات .

وتقمصت شخصية روائي مبتذلة: كيف تصطادين؟

قالت برفع الرأس: لا يعجبني الأغلبية، لكني أحب الحزانى من الخارج، لأنهم يكونون عنيفين في المضجع وأنا مازوشية.

قلت: وإن كنت غير سادي؟

قالت: أثق أنك لم تُجرب لتعرِف فقط!

فقلت: هل يجب التجربة للمعرفة؟

فقالت: نعم للجسد، يحب التجربة، غير هكذا ربما لا، لا أعلم، كيف ستعرف شعورك بشيء لم تجربه؟

فقلت: تفعلين هذا دوما؟

فقالت: ليس دوما، لكن الجنس يعيد لي طاقتي النفسية، يعينني على البقاء وعدم الانتحار، رغم أني لست شبقية بل باردة طوال الوقت.

فقلت: لكني عنيف، لم أَجرب ذلك سابقا، لكني أعتقد أني ممكن أقتلك.

فقالت: أعتقد أن ذلك سيثير في لذة كبيرة مع الأورجازم، لطالما حلمت أني أموت وأنا منتشية.

فقلت: أها، وأنا معك.

فقالت: تعال.

وجدت ملابسها، لم تكن تلبس إلا جلابية تحتها ملابسها الداخلية، الصدرية المقطعة والسروال كذلك.

دخلت وقفت أمامها أنظر في عينيها على غير هدى، أي كائن هي، هل هي مشابهة لداخلي، أم من سواد الناس؟

ورفعتها فجأة وبهياج، على الكنبة الوحيدة، بدأت في تقبيلها بعنف شد شفتها السفلى بأسناني براحة وبرقة، وساعدتني في خلع ملابسي، لم أكن مهتما لما يمكن أن يحدث، إن اكتشف أحد شيئا كعادة الأمر لدي.

بدأت في تقييدها بيدي بعد فردهما وولجت بسرعة وبعنف بدون أي خوف أو اهتمام بجرحها، لم تكن خائفة، وهذا ساعدني نفسيا أن هناك من لا يخشى الألم في هذا العالم، محاولة إثبات نفسية على فساد الذات الإنسانية ليس التدين فقط وليس الكفر فقط بل الذات نفسها.

***

(20)

لا نشوة كاملة في الاستمناء، هو أورجازم ناقص، الجنس بلا اخر متفاعل، يدلق نشوته أو فيه أو أي شعور به، وهنا ربما يأتي الكبت.

أتذكر أول مرة استمنيت فيها، كانت غريبة وكان قبلها ممارسة الجنس بدون البلوغ مع امرأة شبقة، أخذت وقتا طويلا بعدها في اكتشاف جسدي، لم يكن اغتصابا بل كان مزامنة لشبقها وهي نائمة.

وتلى الأمر الكثير من المرات بعد البلوغ، وربما الجنس ساعد على اكتئابي، تساعد النشوة المتكررة بشكل مفرط على فقد النشوة تلك، وتزامن ذلك مع فقد معنى العالم مع وفاة أمي بالسرطان.

يتم اختبار النشوات أيا كانت باختلاف كبير جدا، وبمثيرات مختلفة وبنوازع مختلفة.

الامر في الاورجازم أنه شكل بلا شكل، مفهوم تختفي فيه اللغة فإن أخبرت أحدا هل جربت الحشيش مرة؟ وقال نعم، هو يعرف نشوة الحشيش مثلا لكن إن قلت له هل جربت الهيروين؟ وقال لا، لن يستطيع تصور هذه النشوة، لذلك النشوة لا تعرف إلا بالعيش والمأساة كذلك والشكلان هما من أعماق المشاعر المتداخلة.

ذهبت للجنس ليس دوما للشهوة الجنسية البحتة لأن الأفعال المادية لا ترتبط بالضرورة بأفعالها.

فهناك من يذهب لتغيير المود النفسي، ومن يذهب لتفريغ الطاقة

المكبوتة، ومن يذهب للشراكة نفسها ولترك الوحدة، ومن يذهب لكي يشعر أنه محبوب، ومن يذهب للشعور بالفحولة، الخ

ويمكن ممارسة الجنس بدون أورجازم لشريك أو الاثنين معا، ويمكن الإثارة بدون الدرجة نفسها.

ولا يرتبط الأمر من خلال الحب فقد تنشأ المشاعر من خلال الجنس بدون سابق معرفة ولكن الممارسة في الحب مختلفة كون الحمولة الشعورية والذهنية موجودة بشكل كبير.

والأورجازم الذي وصلت إليه دوما كان مرتبطا بشكل عنيف.

فكل مرة شعرت بالأورجازم كان الأمر مختلفا بشكل كبير عن سابقه، والغريب أن الذي كنت أراقبه دوما هو الحيز في الهاجس ما فيه في هذه الثواني.

أجد ألوانا فقط دوما تتغير كثافتها وأنواعها على حسب درجة الحسية به.

في الجنس هناك دمغات شعورية كثيرا يتم تذكرها ولأن فعل التذكير باهت فعندما يكون الأمر لأقصاه في الأورجازم يكون هو المتذكر الاقوى في الحضور، وأنا أحيا على ذكريات شعورية وصورية كون هناك فروق زمنية بين هذه المدركات القوية المفارقة.

ولا يتكون الجنس من القذف أو الإيلاج أو العمل الجسدي الذي ينتج أطفالا فيما بعد، بل من أشكال كثيرة توجد من التجربة، ومن الشركاء المختلفين.

يتم اختبار النشوات الجسدية بدرجة كبيرة من خلال الممارسة والتجريب، سواء أورجازم أو شكل المخدرات، وحتى الميول ليست

فقط الجندرية، بل نوع المنظور في الشريكة أو الشريك من سمات جسدية، عمرية، شكلية، مظهرية، الخ.

لا يمكن بالنسبة لي إخراج البعد الجسدي من خارج البعد الانساني، لا يمكن التقزيز من الممارسات نفسها، لا من استخدامها على حسب المعايير الإنسانية.

تم تصوير الأورجازم تاريخيا وواقعيا حتى في المحادثات غير الرسمية على أنه انفجار أو دفق كبير، أي هناك فيض، هناك فيض على سعة الإنسان الجمالية.

فهذه الحالات نادرة، حالات الذروة، وربما ما يجعلها بهذه القيمة حاليا هو تدنِّي النشوات الأقل وعدم عيشها لفترة طويلة، فيعتمد الإنسان على حسه.

وجميع الأشكال في الأورجازم خروج ذاتوي من الذات ولو كان أناوي ليس بالضرورة للشريك ولكن الخروج.

***

(21)

التجربة المقلِقة التي جعلتني أسأل الكثير عن الذات والإله والمعنى، رغم أنني لم أكن مسلما من الطفولة ولم أكن أستسغ الكثير ولكن جبرا حتى عندما كنت أصلي كنت لا أتحدث بأي كلمة. ولا مرة صليت بكلام وعندما صليت في جنازة أمي كنت أسب.

مررت باكتئاب بأشكال مختلفة على مدار حياتي، وكان السبب الفقد الذي أحدثته الصدفة، والحاجة إلى مساءلة أحد وعند البحث وعدم ايجاد أي شيء، كان الشكل المنطقي هو التوجه للذات لأكلها بأكملها.

ذهبت لخمسة أطباء، التشخيص كان واحدا، اكتئاب حاد وثنائي القطب، ولكن درجة تطرفه اختلفت ودرجة التأكد مما سيضفي من أفعال.

المرة الأولى التي ذهبت لها، لم يكن في هاجسي هذه الأفكار عن مرضية الأمر بشكل مجتمعي، لم أكن أكترث لهذه القيم الفاسدة، لكني كان لدي شغف بسيط كيف يتم الدخول إلى النفس التي جمعها فوضى ومتشددة أكثر في.

كان أبي يظنه مسا شيطانيا أو ركوبا لجن. وكنت أضحك على هذا كثيرا، لم يكن يؤمن بالطب النفسي ولا يعرِف ما هو.

حتى تشاجرنا مرة بعد أن قلت له، استدعي الجن أو الشيطان وابعثه لي فوق لنجلس في غرفتي نشرب الشاي أنا وهو.

ضربني حتى أبعدته أمي عني ولكني لم أحدثه لفترة وقال لها حديثا قطع داخلي عنه إلى نهايته بما فيه" هذا ابنك الذي جلبتيه لي، ولم تجلبي لي غيره، لفساد رحمكِ" كنت أسمع هذا الكلام للمرة الأولى وكنت مشدوها وربما تحول الأمر لعلة أن أمي كانت تحتمِله لأنها تظن أن هذا عيبا فيها.

فكرت ليلتها في سمه أو قتله، ولكي استمعت للتوني.

ولم أنم لمدة ثلاثة أيام كاملة أفكر في الجملة التي قالها وفي حياة أمي.

حتى ذهبت لطبيب بتوجيه من أمي وقالت لي: لا تُخبِر والدك.

أعطاني الطبيب أعلى جرعة فكنت أنام أكثر من ثلاث عشرة ساعة، وأقوم جسدي منهَكا ومُهدَما.

لم أنتبه إلى الكثير في خضم هذه الاكتئاب وأنواعه وقد قرأت ما قرأت فيه، ولم تغرني أكثر الأشياء بالفهم، حتى عدت للبيت لأدخن سيجارة على سطح البيت.

***

(22)

عاهدت ذاتي عهدا غير منطقي أحنث به بعد مدة أو لا كعادة العهود جميعها من الآخرين، إلى الاتجاه إلى الحياة اليومية، إلى المجتمع وكان الأكثر حيوية هي النساء، الجارات، اللاتي كنت أسميهن "أساطير الدلع"، كنت أعرف واحدة منهن، أرداف جهنمية، ووجه تتأرخ فيه الشهوة، النظرة وحدها كفيلة بسعار الرائي، كانت تريد أن تتزوجني قبل أن تتزوج، لأشياء لا تخصني أنا في كنهي، لذلك كنت على حديث معها ليس بشكل دائم لكن بشكل متقطع.

حدثتها بعد دلعها على سطح البيت المجاور وهي تمسرح ردفاها في الهواء، ولا ينقص المشهد أي شيء بداخلي.

:كيف حالك؟

:بخير يا حبيبي، أين أنت منذ زمن؟ تهملني.

:كنت مشغولا بمعدومات.

:لن تترك هذه الأشياء الغريبة، ولكنها ما تجذبني لك.

:همم، وماذا أيضا، أسطورة الدلع.

ضحكت بصوت عال: طيب أسطورة الدلع تدعوك للمضجع.

: هههه، وأنا ألبي الدعوة، لم يعش من يرفض وحيكِ، ويسير في السواد!

:ماذا؟ زوجي قليلا وسيمشي والبيت فارغ.

:سأدهسكِ تحتي، أنا عنيف جدا.

:تعال يا قاتلي.

: لكن لتخبريني عن قصص أساطير الدلع.

:لم؟

لأني عطِش لحبكات أخرى للحياة، لتفاصيل..

: تعال وسأخبرك بما تريد.

نزلت ببرود شديد وأخذت في طبقتين الكثير من الوقت لامبال، أتحدث في رأسي كالعادة، كل شيء بي كان فوضويا نسبيا غريبا متطرفا، أنتقل بين الامتلاء والفراغ والامتلاء بأشياء أخرى والفراغ والخ

لم أكن أحب مجاورة البشر، ولم أعد أؤمن بنورانية الإنسان ولا يوتوباه، لقد أصبحت أؤمن بالسلعة، هو يريد مني شيئا وانا أريد منه شيئا، تبادل السلع هو العلاقات بين الذات والآخر.

لم أعتد الاتكاء على البشر في النكسات، المخدرات أولى بذلك، البشر عبارة عن مجموعة من الذباب الذي إن حن يعود لطبيعته المفرغة والمقرفة في أوقات أخرى.

الألم تحول إلى طاقة شرية لا يناجزها شيء ولا يضارعها شيء، هل كل الشر متنه ألم؟ هل هناك طبيعة لهذه النفس الإنسانية أم أنها فوضى متشددة لا تقبل التشكل أبدا؟

هبطت بلا نظر إلى ما حولي وصعدت إلى بيتها، كانت جاهزة تلبس قميصا للنوم وأدخلتني وقالت

:أخيرا، عذبتني

:لم عذبتك؟

:أنت لا تعرف قيمتي.

: أنا لا أعرف قيمة لشيء.

: ستعرف الآن، تعال لداخلي، نديت من مجرد رؤيتك.

أصبحت عنيفا في الجنس مؤخرا، الحالة المضطربة مدلوقة، أريد إيجاد معنى من شريتي ومن عبادتي، ومن تطرفي، لكن لا فرق، إنها نشوة بسيطة أتذوّقها في كل شيء فقط.

قلت لها :ستحكي لي أولا.

:اجعلها بعد الممارسة.

: لا قبلها.

: أحن إلى حبكة أخرى، حبكة قوية.

: لا أفهم.

: أخبريني عن نساء الحارة.

: كلهن يمارسن خارج الزواج، واثنتان تمارسان السحاق، تريد معرفة من؟

: لا أريد، لست مهتما، احكي لي أكثر.

: والدك أيضا يمارس مع إحداهن.

: لست مستغربا.

: لكنها لا تحبه، يستغلها بالمال.

: اها

: ماذا يجذبك في الرجل؟

: لا أعرف بالتحديد، لكني أنجذب للغريبين، الفوضويين، بلا إرادة أتخيلهم في المضجع.

: وزوجكِ؟

:زوجي لا يهمه سوى مهبلي أن يدخل فيه، وإن أردت أن يصلي له لفعل، الرجل، الرجال، يخونون بالعموم بسرعة، أما المرأة لا، عاطفتها أقوى من رغبتها.

: ليس دوما، أنا لا شيء في أقوى، لكني لا أستطيع الوجود في علاقة عاطفية، هذا يقززني، تبادل أي شيء مع أحد لمدة طويلة وخصوصا العاطفة.

: لم تكن هكذا؟!

: لم أكن الكثير، وأؤمن بالتغير، أنا سائل في عالم سائل، عدم تطور لمني تطور للكثير.

فردت رجلاها على آخرهما وقالت : هيا نبدأ الرحلة، الرحلة على المضجع، أريد تذوقك كلك.

خلعت ملابسي وقلت لها اصرخي بقدر ما تستطيعين، ولا تخبئي وجهكِ عن وجهي، أريد أن أراه دوما في الجنس، أحب ذلك.

***

(21)

لم أعد إلى بيت أبي ثانية وصرت في بيت صديقي دوما، أجلس في الغرفة التي كنا نتشارك فيها الأحاذلك، بحثت في البيت كله بعد أكثر من أسبوع لم أفتح أي باب ولم أطلع إلى الأدوار العليا، عن ورقة أخرى لكني لم أجد أي كتب أو أوراق، لا أعرف هل تخلص من كل ما هو مكتوب عليه أم ماذا؟

لم أجد إلا حمامه على سطح البيت مذبوحا كله وغربان كثيرة تأكل منه.

هبطت أنظر إلى الجدران التي كثيرا ما لعبنا وسطها، حتى سمعِت نداء أبي في الأسفل.

نزلت له لا طاقة فيّ للحديث ولا للشجار ولا لشيء وربما حاجتي لإسكاته تتعدى قتله حتى.

أبي بابتسامة صفراء: ها ورثت الكثير وليس عنيّ المال يُغيِر، نسيت أباك.

أنا: ماذا تريد؟

أبي: أريد ابني حبيبي .

أنا: وأنا لا أريدك، اخرج من هنا.

أبي: اهدأ، ورثت كثيرا، وأنا محتاج ونريد توسِعة المسجد بهذا البيت وأقارب الشيخ يريدون تركتهم للتبرع بها.

أنا: ليست هناك تركة لهم، كل شيء ملكي ولن أتبرع بشيء، اخرج من هنا، ولا تأتي هنا ثانية.

أبي: لم أنت عنيف هكذا؟

فغرقت في الضحك: تتحدث بهدوء، ههه، افعل ما يحلو لك ولكن بعيدا عني وأغلقت الباب.

كان تحت البيت ينظر، عيناه متقدة حمراء، ولكنها منادِية، هذا هو من أخبرني وقال لي "ستُجَن" وجرى.

هبطت سريعا إلى الشارع أنظر ولكني لم أجده، وتهت في رأسي، هل هو أم أني بدأت في التخيل ورؤية الأشخاص مرة أخرى من ذاكرتي المليئة بالطيوف؟ وترددت هل أفعل ذلك للتعزية للحديث لإيناس ذاتي بمن أعرف ولو بقدر بسيط.

لم أعد أعرف الفروق الجوهرية بين الواقعي والتخييلي.

عدت للبيت وأنا أدخل نادني الشيخ شمس، وقفت أنظر له، مدامعي مليئة بالملح الجاف ولا حجب فيّ أمام هذا القلب الصافي، مشيت له خطوتين ووقعت.

لم أكن أشعر بقدمي، جرى نحوي وأسندني ببطء وأدخلني إلى البيت وجلس يدلك لي قدمي بلا بخل من عينيه بل حنان وهو ينظر لي.

قلت له كعادتي في دفع المساعدة: أنا بخير، لا تقلق، فقط السماوات تزداد اتساعا والأرض تنحصر.

قال: لم لا تأت معي؟

قلت: لم يعد يجدي الأمر- لقد حان أوان هجر الأرض وعيشها، الفتوة في الزهد والتخلي.

قال: أنت أدركت الكثير ولكنك ما زلت صغيرا، أعلم أن العمر زمن خاطئ ولكن يا بني لا تهجر وبك رحمة ما زلت ألمسها وأشعرها نحو كل شيء.

قلت: أريد فقط أن أطوف في حضرة هنا.

قال: تعال إلى الحسين، هناك حضرة غدا.

قلت: أريد أن أطوف هنا على الدم الجاف له.

قال: سمعت عن انتحاره، لكنك تعلم السلفية هنا وقوتهم، لم يُسمَح بحضرات هنا منذ موت شيخنا والد صديقك.

قلت: أعلم ذلك جيدا، دعني أخبرك قريبا بالموعد وليس لكم علاقة بالمسجد، هنا أمام البيت.

قال: هل تريد... ؟

نظرت له وأنا أدمع: سأقوم لأنام، البيت بيتك.

قمت ببطء وأستند على ما حولي، والعالم يدور حتى لففت وجهي فحضنني من الخلف.

وقال لي: أنا معك دوما.

نمت على الكنبة التي كنا نجلس عليها، والشباك مفتوح يبث نسمات قليلة، بعد دقائق، كانت كل الذاكرة تتجلى أمام عيني ولا أتذكر متى نمت، لكني استيقظت على صوت أسفل الشباك يردد شعري، قمت بعدها بقليل أتسند ونظرت فوجدته هو.

لم أقترب منه بهذا القرب من قبل، كان وجهه جميلا جدا لكنه متهدل، متعب، لا حياة فيه إلا في عينيه ولججها البعيدة .

فقال: أعرف انتحار صديقك، كنت أشهده وهو يفعلها وأنا من

أغمض عينه بعد وقوعه على الرصيف.

وقفت مشدوها، لا أعرف ماذا أقول، المتكلَم كله خائخ، والإحسان إلى صمتي أفضل.

فقال لي: أعلم أنك تتذكرني، لا أحد ينسى أحدا يقول له إنه سيجن.

قلت له: أتذكرك.

قال: أنت محاط بالمنتحرين والمنتحرات.

قلت له: ماذا تقصد؟

قال: هذه المرأة الخلاسية على السطح.

قلت له: من أدراك بكل هذا؟ وكيف تعرفها؟ وتعرفني؟ هل تراقبني؟

قال: لا تقلق، لا أحد يعرف شيئا، إنها أختي.

خفق صدري بقوة شديدة لم أعهدها من قبل، وتذكرت نور الفجر على وجهها.

قال: لقد حدثتني عنك، لكن الألم كان أقوى من الوصل، كالعادة.

قلت: من أنتم؟

قال: نحن أشباهك، فقط العلل مختلفة.

قلت: يعني هي ليست خيالا وكانت تطلع على سطح البيت وأنت من وجدت ملابسه في المكان.

قال: ومن يومها لم أذهب إلى هناك.

قلت: والآن، لم تبشرني بالجنون؟

قال: لأن هناك إشارات عليك بالأمر، كنت أمر بها أنا، لا تقلق، لا أنعتك به لأدنسك أو أدنيك.

قلت: وما هي الإشارات تلك؟

قال: ترك اللغة، الألم الشديد، الوحدة المطلقة، والضجر من الأنفاس، والشغف بالتخيل فقط.

قلت: وماذا تريد مني؟

قال: هل أنت خائف؟ لا أقصد مني بل من ترك نفسك.

قلت: لست خائفا من شيء.

قال: انزل وهيا بنا.

قلت: إلى أين؟

قال: وهل ستفرق الأمكنة؟

نظرت له ونزلت إلى الشارع، لأول مرة كنت فرحا بدقة بتعريف الفرح كشكل من أشكال الاختلاف.

قال: سأريك عورات المدينة والناس، هذا الإنسان وحش كبير.

قلت: وما جعلك هكذا؟

غرق في الضحك وقال: كل شيء، بدأ الأمر بعد أن أخبرتني أمي أني وأختي لسنا أولادها هه، هي كانت تحتضر ولا أعرف لم قالت لنا ذلك، لكنها الخير المزعوم بالأمانة التي تدمر.

دعك إنها مأساة.

تعال انظر في المسجد من هذا الثقب، تعال.

قلت له: ماذا هناك؟

قال: أنظر ولا تسأل كثيرا.

صعدت على المصطبة ونظرت وجدت شيخا يحفظ القرآن ويمسك خاصرة طفلة متحرشا، جريت نحو باب المسجد حتى أمسكني

وقال: من أنت لتحرم الآخرين من آلامهم؟

دفعته بقوة فأمسكني وبدأنا في العراك، والضرب، كان قويا جدا، خبطته فقال لي: من تظن نفسك؟

خبطته ثانية.

فقال: إنه عالم مقرف، وأنت منه.

خبطته ثانية.

قال: إن أردت لقتلتك، ألم تُرد قتل أحد في حياتك؟

جلست على المصطبة منهكا حتى قال: دع هذه الإنسانية، هذه فكرة، خيال غير حقيقي.

وتذكرت حلمي الذي خرجت فيه كتلة بيضاء كبيرة مني ورُمِيَت في الشارع وكان وعيي معها وجسدي رماد ملتحم في الأعلى وجاء كائن يدب بشاكوش عليها ولكنه لم يستطع كسرها حتى جلس على المصطبة يبكي.

قال لي وهو يقترب: عليك أن تتخلص من هذا، إنه كل ما يقرِف، ما زالت هناك عورات في المدينة، عورات في الإنسان، عليك أن تراها.

جلس بجواري وأشعل سيجارة وبدأ ينظر في المكان بإعجاب ويقول: لا تُقاوم إلا ما ينحو لتعقيلك، إلا ما يمنعك عن جنونك، وممارسته، إنه جنسك.

قلت: كانت شدتي الكبرى مع المعنى لا مع الآخر ولا مع المجتمع، كانت شدتي بلا أي رقة، أجد العدم في أصل الأشياء جميعها، ولا أبغي خالفا وأفرده لخوف أو لتلبيس معناي ومعنى كل شيء. يقول الكثير عش حياتك، ولا أعرف ما هذه الحياة التي يحيونها، إن النشوات

القليلة في هذا الخراب تساوي كل النشوات التي شعرت بها في السجن.

قال: المعنى يخاف منه الكثير، يخاف الغرق فيه، لأنه مثل هواء عادي لكنه ملون، مُنشِ لكن بعد فترة كبيرة من الألم، والتصورات فيه صعبة المنال لذلك يركن الناس للحسي واليومي سواء كشغف واقعي أو كشغف قرائي أو إبداعي.

قلت: كنت أكتب أفضل أن أقابل مجنونا عن أن أقرأ عنه، أفضل أن أعيش أنا الجنون على أن أقابل مجنونا، وهذا فرق جوهري بين أقليتي التي على هامش الهوامش وبين الذين في النور وفي الهامش الأول والثاني.. ليس الأمر هو الجمال على الاريكة، الجمال الذي أقدره، هو الذي يكلف حتى لو كل شيء.

قال: لا تُوجد هوية دنِسة.

وصمت قليلا وقال: تريد أن تكتب؟ أعلم ذلك، اكتب.

وقام يبحث عن ورقة ونظر لي وقال معي قلم، وجد ورقة جرائد قديمة وأعطاني إياها.

حتى كتبت: "نصا يتلو نصا بلا أي تغيير في داخلي، لا أعرف ماذا أفعل بالعالم؟ ليست صرخة تشاؤمية بل صرخة تساؤلية، لا أتغذى على أي شيء سوى متخيلات والشعر ليس تطاحن يدي، هل يحيا هكذا جميع الشعراء؟ أم إن الأمر تطرف ذاتي وملكة تدميرية؟ أصبحت أجلس بالساعات في المقهى أدخن السجائر وأنظر للشارع ولا كوة تنفتح ولا نصل يمشي لشرياني، أغيب وسط مدلهمات ونورانيات غريبة، أتأرجح بين الذوات المعذبة ولا مألوف، أشعر أني أتبدل لهوية أخرى كل لحظة،

هوية رؤيوية. ربما الثورة العارمة شرخت أي مضي بجوار أي أحد وأي ضم ممكن أو غير ممكن لذاتي، لا ألوم أي أحد على أي شيء، قسوة الآخرين من جنس الأنوجاد البائس ورهافتي وقسوتي من جنس الوحدة، نحن مخلوقات سيارة في عوالم، طاقتها من أوج الجنون والعبث.

تقول كلاما محرما في رأسك وفي المقاهي ومطاعم المعنى للعاديين هي السلطات، كان الأمر مرذولا بالنسبة لهم، كل ما أفعل، نظراتي الحادة ونبرة حديثي، كان يريد ذنبا أحمله حتى لو قلت ما أقول، لكن أن لا تحمل ذنبا، وأن تتحدث بطبيعة كما يقولون كلامهم العادي، كان الأمر غريبا بالنسبة لهم أكثر.

هل هناك نشوة بالنعت بالغرابة؟ هل ذلك يؤسس الشعور بالوحدة أكثر؟ ربما كان ذلك فعلا هكذا وربما كانت وهما مثل الوهوم الكثيرة، لكن ما هو الوهم؟ هل هو اللامنطقية الساذجة فقط؟ أم أنه كل شيء؟ وإن كان كل شيء، ما هو المعيار للحقيقة الذي جعلني أنعت الأشياء بالوهوم؟ حديثي مع اللغة لم يعد يفيد، لم تعد تعطيني شيئا إلا قوة للانتحار من كثرة الانفصام الذي فعلته.

حللت كل شيء حتى الورقة التي توجد في علبة السجائر والتي أحيانا أستعملها "بفرة".

إن تحررت في الدرب تنتشي وإن عبرت عن حريتك تتدمر، ليس العالم مهما كان عزليا لي، يوجد آخر يسيطر ويحكم حتى لو لم يكن يحكم فيّ بنسبة مثل الأشخاص الآخرين.

آخرتي في اللغة وِمن اللغة، آخرتي من مجازاتي، من لا لغتي، غنائم الجنون والسكر.

الذين يعرفونني لا يعرفون حجم السيطرة التي يفعلها عقلي لا إراديا لعدم فقد اللغة معهم، ومعي، الجنون أمة الصموت

أشف الجنون وأصفاه هو أن تُجِن نفسك وتحيا هذا الطور من اللعب في حسك المجرد، لا أن تولد مجنونا.

كل خيال خيلته مهما كان يوتوبي، بشعني وألمني في نهاية طوره في باطني وفي كلمتي، رغم أني لا أمتلكه ولا أحاول ذلك أبدا بل أغذية وأعطيه من كلي، وأشف سطحه وقعره ليكون مرآة لنفسه والعالم ولكن الطيف خوان بطبيعته، ولا يمكن أن تسأل أحدا إلا دوبامين الجنون.

أظن أن من علامات الجنون هو عدم وجود في الهاجس كلام عادي، وامتلاؤه بالشعر والمجاز.

لم تفسد فوضاي سجية الأنظمة حولي، ظللت أحفر في الأركان والأبعاد، بحثا عن فساد الشكل والنظم ووجدت أن كل موضوع النظام هو الفوضى.

المجنون هو من لا غريب عنده والعاقل من لا شعر فيه".

وقلت له: لا أريد أي شيء، فقط أكون مطمئنا، هل هذا كثير جدا؟

كان العدم هو الشبح الأكبر بالنسبة لي، ليس العدم الاخير، لأنه لا زمن، بل العدم الحالي، فراغ الوجود من الوجود، فراغي من الذات، فراغي من اللغة، من المشاعر، وهذا صعب في الحصول على راحة ولو لثوان معدودة، لأن اضطرابا أعنف يحدث، اضطرابا كما يسميه العالم، ربما يغش باطني من جوهر العالم الفوضى، ربما يوجد بها فقط.

كان هو جالس ينفث سيجارته ويده ترتعش عليها وبدأ بالحديث.

حديثه مضطربا جدا، الحروف تخرج عنوة: أي قسم بشيء يزيل الصقيع الذي لم ينته منذ وجدت، أي قسم حتى يخففه؟

فُتَح باب المسجد، وخرج الأطفال والشيخ، كان الشيخ مبتسما، نظر إلينا باستغراب وقال: السلام عليكم.

فغرقنا أنا وهو بالتزامن في الضحك حتى عبر الأطفال فسكت وأنا أنظر لهم وسكت هو أيضا.

***

(23)

العذاب في التفلسف لا في الاطمئنان إلى كل الموروث، وهذا التفلسف فعل عقلي ذاتوي، ممكن يجرحه كتاب أو شخص أو صدمة نفسية.. الخ، فلا يمكن نعت المتفكرين والذين لديهم رؤية أخرى للعالم بالكسل، فالكسل في تبني وجهات نظر البيولوجيا الجسدية والنفسية والاجتماعية..الخ

على حسب البيولوجيا أنا حيوان(مثقف، متدين، معلمن،..)

على حسب الدين أنا

(عبد، ابن الله، نكرة، ..)

على حسب المجاز أنا

(الوجود، العدم، المطلق..)

على حسب اللغة أنا

(مسمى، دلالة تائهة)

على حسب مدمج كل شيء في أنا

(أثير، هيولي،.. كل ما تلاشى)

حدثت الشيخ شمس واتفقنا على أن تكون الحضرة اليوم أمام البيت بعد العصر، كان هناك جمع كبير أتى معه، بخضارهم الجميل الذي يرمز للحياة التي ليست فيّ.

كنت هادئا على غير العادة، هدوءا مقززا، كأن الحياة انتهت مني

ولم يتبق سوى اختيار نوع الوداع والانتحار.

كان هو نائما أمامي، يتفوه بكلمات متفرقة بعيدة المواضيع، وكنت أشعر أن الكلمات تخرج منه كأنها قيء ليس في نومه فقط، بل في حديثه العادي.

يبذل مجهودا كبيرا للحديث، مجهودا ليس به، كأنه يُقاوم تحريك لسانه وصوته.

أتوقع قدوم أبي وأصدقائه وبالفعل تسللوا واحدا تلو الآخر.

الشيخ شمس قلِق من وجودهم الساكن ومن وقوفهم بعيدا ينظرون وعيونهم مُستشيطة غضبا.

بدأ الدف بالعمل وبدأت المدائح، والصوت يعلو قليلا قليلا، يدعو جسدي الهزيل للرقص والطواف، ظللت أقاوم حتى شممت جرعة كبيرة من الهيروين المتبقي.

ومنذ أيام وأنا أداوم على شمه، أول ما أستيقظ لكي أستطيع القيام من سريري وفي العصر لكي أستطيع الكتابة وفي المساء لكي أستطيع النوم.

الهيروين يُوازن عدم نشوتي أو عدم قدرتي على النشوة بالمعنى.

يثقل الحشيش الوعي، يفكه الكحول، يُشذره الهيروين، يخلقه الشعر.

هذه الجرعة كفيلة بقتلي ببعض الجهد الجسدي، هذا الإكسير الذي سينقلني، هل سأموت بلا نشوة؟ أريد وداع الخالية بنشوة.

وخرجت أتطوح، أشعر برجلي خفيفة، قدم أبي نحوي عندما رآني وعلِم أني من دعوتهم ليشدني ولكني دفعته ودخلت إلى داخل الطوافين.

فقدموا خلفه ووقفوا قليلا حتى بدأوا في دفعهم ومسكي، ثار الطوافون، وعَلي الصوت وبدأت المعركة، ولم تتوقف الدفوف عن عملها.

كانت الموسيقى تشحن الجميع بالعنف وتشحنني بالحركة أكثر لكي يتوقف قلبي.

حتى وقعت على الدم الجاف لصديقي على الأرض.

(24)

المصحة مكونة من الكثير من الغرف، ولكنها باهتة مليئة بالرسوم وختوم الدم بالأيادي، وبطاقة الشر والسر والغرابة.

الغرف مليئة بالأقفال القوية كأنها الجحيم أو أرض وحوش و شياطين.

تحوي المصحة الكثير في المرضى من أنواع مختلِفة من الأمراض النفسية والعصبية، هذا أول يوم لي هناك بعد محاولة انتحار انتقلت بعدها للمشفى وحولوني إلى المصحة.

والقصة طويلة والحبكة دوما خائرة والسرد آبق من الفوضى.

لم أعِ شيئا بعد حز شرياني، إلا بعض الدم المنساب على الأرض وبعض الصراخ المؤلِم. وبعض الجمل المتردِدة في أذني منذ كنت صغيرا لأمي.

عائلتي لا تؤمن بكل هذا، لكن أجبرهم عدم الشفاء بشتى المحاولات الخرافية من الشيوخ للرُقى، لطرد الجن وحتى الاتكاء إلى القساوسة وحتى الفوز بالبيت وهزيمة الصوفية.

أصبح هوسا كون الأمر مشكوكا في جريمة ما وجريمة خاصة بأحد أفراد عائلتي في مقتل زوجة أخي.

تم التصنيف بالاكتئاب الحاد بدرجة عالية والعنف الشديد والذُهان، بعض وقت طويل من الغرابة والتقزز من كل شيء.

ودفع كل أنواع العلاقات والعنف ضد ذاتي، لم يكن سِوى الانتحار فِعلا ليس حلا للتخلص من الألم.

لم يعرف أهلي ذلك لقلة علمهم بالأمراض النفسية وعدم اعتقادهم فيها.

وربما هذا قلل من علاجي فأنا أيضا أبتعد عن ذلك لهوسي بذاتي والقوة النفسية التي لا تُضَاهى.

ولكن أبي زجني هناك للجنون لا للعلاج.

مربوط إلى السرير، عندما فقت في غرفة غريبة ولازدياد الطاقة للأنا وتضخمها، لم أكن أقبل الخضوع أبدا ولا الطاعة ولا الاستمرار في أي نظام ممكن.

ظللت أنظر للسقف بعد محاولات كثيرة لا تنتهي للترجرج على السرير وهز جسدي للخروج من القيود أعقَبتها بالصراخ ولكني لم أقصد به أي نداء ممكن لأي أحد.

كنت أقصد به الرفض، جرح الذات وقدرتها الهلامية، صوابية مفهوم الحرية المطلقة.

لم أعد أستطيع الاستمرار في الجلوس وحدي بعد التأمل لأيام كثيرة هدأت فيها أو أقنعت ذاتي بالدخول للنظام الجديد كمُداراة لعجزي عن الخروج، هذا العقل يُوهم بالكثير للحماية من العجز والانتحار ثانية.

وهذا المجتمع أقوى مني ومن تصوراتي عن القوة والسُلطة.

أنوي بالفعل قطع شرياني ثانية بعد أن يفكوني، لا أريد أي شيء في حياتي بعد، أنا رماد ملتحم بدم وعظم خائخ.

حتى وأنا مقيد أرفض البكاء، أرفض التذكر للجماليات السابقة، وعندما أتذكر حضن أبي أصرخ وأضرب رأسي في السرير القطني.

هدأت بعدها بأيام وبدأوا يتحدثون معي قليلا قليلا.

أتحدث بنية خبيثة للخروج فقط، وعيني أرى فيها جثتي محترقة أحايين كثيرة، أو صَلبي على السماوات أو وجهي معلق في الأفق بعيد بمنظور عميق مذبوح.

جاءت طبيبة تقف خارج الغرفة من قبل وتتحدث من خلال الميكروفون لكنها بدأت الدخول عندما قلت لها: لا تخافي، لا أؤذي إلا ذاتي، أريد رؤية أشخاص، أريد أن أحسهم.

تلاحقني عين غريبة لليالي، قابلتها في الشارع أو تلاقينا في باص ولم تعد هناك شوارع ولم يعد هناك باص.

وترتبط العين بنغمة، وهذه نعمة الحزن على وجودي، ملاحظات دقيقة لزوايا خبيئة، ادخلي لا أؤذي إلا ذاتي.

تدخل خائفة و أقل صوت يُربِكها.

عَبرت من الخارج شاحنة كبيرة وأصدرت صوتا رهيبا، ارتبكت وكادت تقع أو تصرخ.

جميلة، وتنز منها براءة رغم هذا المستنقَع المليء بأمثالي.

لا أعرف كيف تحتمل هذا البؤس، لم أر بعد أي من النزلاء غيري بشكل قريب وواضح إلا مرة عبر من أمامي أحدهم ووجه نحوي يده كمسدس بثني أصابعه.

قالت بصوت متلعِثم خائف رغم أني مربوط: كيف حالك اليوم؟

قلت لها برقة رغم أني لا أؤمن سوى بالصراخ كمتكلَم: لا أعلم، كنت لا أدري دوما في حالي، أو لا أعرف تحديده .

قالت وهي تنظر لعيني مشفِقة: لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام.

قلت بعنف لكني تداركت في آخر الجملة: هذه الكلمات لا تعني لي شيئا لكنها مطمئنة قليلا.

صرخت بحماس: لا تبتئس، كل شيء بيدك.

فرددت ببرود: أتمنى أن تكون.

وصمت قليلا وأردفت: متى أخرج؟ ولو حتى للجلوس معهم؟

فعبّرت بمَوَاربة: عندما تكون مستعدا.

واستفهمت بحزن: ومتى أكون مستعدا؟

فسردت: ستشعر بذلك وحدك، وأشعر به بعد ذلك، الصبر فقط، ما مررت به ليس سهلا.

وهَمّت بالقيام مع حركة بسيطة: آخر الجلسات غدا، لا يجب أن أخبرك لكن بعدها سنقرر متى تخرج للجلوس معهم وبعدها نهائيا.

جاوبتها بعيني المُثقَلة وجفوني المرخية، قلبي كان مشدوها أو زاهدا والأنا المتضخمة خفتت، وظهر قلبي، وتجلياته وإنتاجه النفسي في عيني.

الكهرباء كحيات تمشي مشرئبّة تحت جلدي حتى تصل لرأسي، تنفث سمها وتتركني بلا مشاعر ولا أفكار ولا أي شيء.

إنها عملية إفراغية لكياني كله، ما الذي أقاومه في الاكتئاب؟

لا أعلم، إنه شيء أكبر مني وأكبر من قدرتي وأكبر من قدرة الحنان والطفولة والمحبة...

الألم أحيانا يظن في صاحبه نرجسية، كما يظن أهلي فيّ، لكن الأمر ليس نرجسية بالمفهوم العادي.

الأمر في الألم أنه يُكرِّه الذات في كل شيء فتنقد كل شيء والنقد

من علاماته السائدة وجود جمال أو عمق فهم لكنه هو يُدنس ذاته والكل.

في الحقيقة لم أكن أؤمن بقيمة شيء، وكنت أتصارع مع كل شيء لذلك. وتهزني القيم التي تخرج أمامي وأشعر بقيمتها، تُربكني، أنني ما زلت حيا.

لم أكن أؤول الأمر بأي شيء ميتافيزيقي لكنه من ضخامته يُخيّل لي أحيانا خرافيته، لأني عاجز تماما.

خرجت للجلوس معهم أخيرا، كانوا مرهقين بشكل كبير، جلودهم مسحوبة كأنها مكوِية، عيونهم مضطربة، البؤبؤ يتحرك بلا نظام ولا تركيز، وإن ركزوا يصير هوسا بما يركِزون فيه.

العنبر مليء برجال الأمن مرتبين وكنت أشعر بضيقهم الشديد من ذلك. من خلال النظر لرجال الأمن الذين كان واحدا فيهم يرتعش جدا، يبدو أنه جديدا هنا.

اعتدت تدخين الحشيش منذ الصغر كطقس للكثير ممن حولي وعلة للمرافقة والصداقة ثم بعد ذلك كملجأ عن الاكتئاب في البداية فقط.

ودوما يختلف عن الكحول أو عن الأنواع الأخرى، الكحول يفك الوعي أو بالبلدي" يدلقك براك" أما الحشيش "يزقك جواك" ولاحظت ذلك في تحليل النصوص التي أكتبها بعد أأيهم، وهذه القصص بعد الحشيش الذي دوما ما كان عدسة بالغة الدقة في تضخيم كل شيء بما فيها الكآبة.

ودرجة التأثير كانت تختلف من الحشيش "القماش" إلى الحشيش العادي فالأول له تأثير أقوى وأشتريه من ديلر فاخر أو يُقدَّم كهدية

من صديق أو عاهرة.

بينما الثاني موجود في كل مكان وبسعر زهيد.

ولكني لم أسمع أبدا هذه الحكايات، كانت غريبة من المرضى هناك وتتكرر وبالغة المفارقة.

***

(1)

كنت عدما.

صرت منيا وبويضة صغيرة جدا لا ترى بالعين المجردة ولا بغيرها، ولكن لم يكتمل تكوني، هربت وتنقلت كثيرا بين أيادي الأمكنة. أول اتحاد من نوعه يخرج قبل التكون، يا للزهو الأعظم، البداء دوما ساحر ومنكس.

خرجت من البيت أنتظر تدحرجي مع الرياح أو مع الغبار أو مع ضربات الأقدام.

أنا أعمى ولكن هل يصح قولي على نفسي أعمى أو لم أنعت نفسي بالذكر، لم يتحدد جنسي بعد، أنا الآن الوجود بلا انشقاقات ولا أجناس.

ولا شجارات الأهل والحموات الذين يشبهون حكومات الحضارات القديمة.

مشيت مع الرياح، الخريف مقزز ومتقلب ولا ينتظر حتى يرميني عبثا في أماكن كثيرة جدا. آه مثل الأقضبة والمهابل، كله مستهجن للأفعال وإنتاج المعاني والبحث عنها وعن غيرها بعد نفيها.

كنت أسمع الكثير بين أبي وأمي، نريده ولدا، لا بنتا، ومشيئة الأمر في شيبة جدودي وعروقهم وبيولوجيتهم.

لا أحد يدري عني ولا عن نواياي ولا عن إرادتي، ولكن حقا أتكلم؟ أم أنه الكلام المنسوخ في طيف الطبيب الذي وأدني وترك أخ واحد لي

ووأد الكثير وأحيا القليل مع الصدف.

أتت الرياح بما لا يشتهي العدم، أنا، ونقلتني إلى مقبرة جدتي قبل أن يغلقوها.

***

(2)

أقف في مركز الارض والجو حار جدا، لكن جسدي مرآة.

أرى كل شيء ولا يستطيع رؤيتي أي شيء. لا يستطيع اكتناهي، أنا مجتمع كبير، كل ما موجود وكل ما عكست. أنكمش كما أريد وأتمدد كما أريد، ولم أستطع رؤية ذاتي أبدا.

خرجت سريعا من المركز صاعدا الطبقات رغم المنقبين عن الكنوز في الأرض والخلائق الأخرى، الذين لم يكونوا سوى انعكاسات الضوء المتسرب من الغليان البركاني علي.

ولم يكونوا ليستطيعوا الوصول إلي رغم قربهم مني، التصور البشري عن الوحوش هو إلى حد ما أجساد مشابهة للبشري. فاختنقوا وماتوا، كان ذلك ما دفعني للخروج، لقد كان الأمر ممتعا كون تناقضات البصريين مختلفة ومتنوعة وغريبة جدا عن مدى إمكاناتهم.

أخذت جلدا لأحدهم وصعدت، كان الجو باردا جدا في البداية مما استدعى إغمائي في الشارع الذي لم ينتبه أحد إلي حتى استيقظت.

كانت مرآتي قوة رهيبة فهي لا تظهر الظاهر ولا كالأشعة السينية الظواهر البيولوجية الحية بل أيضا الضمير.

لا أعلم من رماني هناك كل هذه المدة ولكن لا يهم، لقد خرجت الان.

مشيت إلى الكثير من الأمكنة ولكن جلدي يحجب مراياي، يجب أن أجد حبكة للوقوف في شارع بعيد لأرى فيما في دواخل الناس، لقد كان الأمر ممتعا مع بعض الناس الذين اقتربوا مني في مركز الأرض، فما بالك بكل هؤلاء الناس.

بقيت كثيرا أعكس حتى انطفأت مرآتي.

***

(3)

لأن لدي فيتش التطييف.

هذا الوجود جميعه بلا جنس، لا ذكر ولا أنثى و لا تحتاج الكائنات إلى أي تلامس.

الناس تأتي من مفرخة في آخر العالم.

يأتون شيوخا وتصغر أعمارهم مع الوقت حتى يتحولون إلى نقطة غبار. يعيشون العجز أولا وكلما كبروا في زمن هذا الوجود كلما قدروا على أن يقتربوا من المفرخة لكنهم يتيهون في الطفولة وينسون الإرادة السابقة!

لم يكن هناك حاجة للتلامس، الجلود ليست مهمة والأجساد، اللغة كانت النصيب الأكبر من كل شيء.

لم يعرفوا من أين يأتون بعد، فالمفرخة تقذف بعيدا جدا ويحدث احتفال كلما جاء أحد جديد، يهرع الناس حوله ليسألوه" من أين أتيت ؟ " فيقول" لا أدري"، كانوا جميعهم لاأدريون حتى اكتشفوا الموت والانتحار.

ركزت مع امرأة كانت تمشي جيئة وذهابا في متر مربع، ولا تمِل،

عددت في رأسي ثلاث وعشرين مرة فعلتها، التكرار عملية ذهانية، هوس كما فكرة الانتحار في رأسي ورغبتي في رؤية رأسي مهشمة وغواية أي سكين أمامي.

وتذكرت عندها مدحي ومدح الأصدقاء في الجنون والمصحات ونحن لا نعرِف عنه شيئا ولا يُمكِن أن أدرك طبيعة أي رأس مما حولي، وظللت أفكر في ذلك كوني لم أتماشَ معه وأجاري، أي خُوار هو العقل إن رأى خارجه يهرع له، وإن كسر الحدود له لن يعود ثانية.

شعرت أنهم جميعا يقولون" لا أريدك أن تراني جميلا ولا أن تراني بلا أي تعالق مع صورتي بالنسبة لي، أريدك أن تراني كما تشعر، كما تراه حقيقيا، بائسا حزينا، هذا جوهرك أيها الإنسان العاجز الخائخ الملعون بما تعرِف ولا تعرِف".

الطبيبة تقف بجواري وتنظر لي وأنا أنظر لهم، لم أكن مستغرِبا، كنت أعرف أن هنا بيت الإنسان، بيت الحقيقة، بدون مدح ولكن الإنسان لا يستطيع أن يشفي بأي عزاء ممكن أي شخص هنا أو بأي كيمياء.

قام أحدهم واقترب مني جدا، من وجهي وقال: أنا الله.

قلت له بصوت خفيض بعد محاولات انتقاء الألفاظ لأني مما شهدت، اختيار الألفاظ مهم جدا كونهم كنقاد مفارقين للغة ونغم صوتي، إنهم يشعرون بمشاعر من حولهم بدقة بالغة: ما آخر ما خلقت؟

قال بتلعثم وبسرعة: خلقت مكانا فارغا، لا يوجد به أي حوائط، أكون فيه وحدي، بلا رجال أمن ولا جلسات كهرباء وشمس لا تغرب.

قلت: هل تريد أن تكون وحيدا؟

قال: ألا تريد أنت؟ إنها جنة الآلهة، قم، قم، قم، نتحدث بجوار الشباك.

هممت بالقيام رغم مسك الطبيبة يدي وصار هرج. سيدة فارهة الجمال من المرضى خلعت ملابسها وبدأت تضرب رأسها في الحائط وتصرخ" أنا عذراء"، حتى تكوموا جميعا في زاوية كقطط صغيرة حول ضرع الأم وتدخل رجال الأمن كالكلاب المدرَبة.

تمت